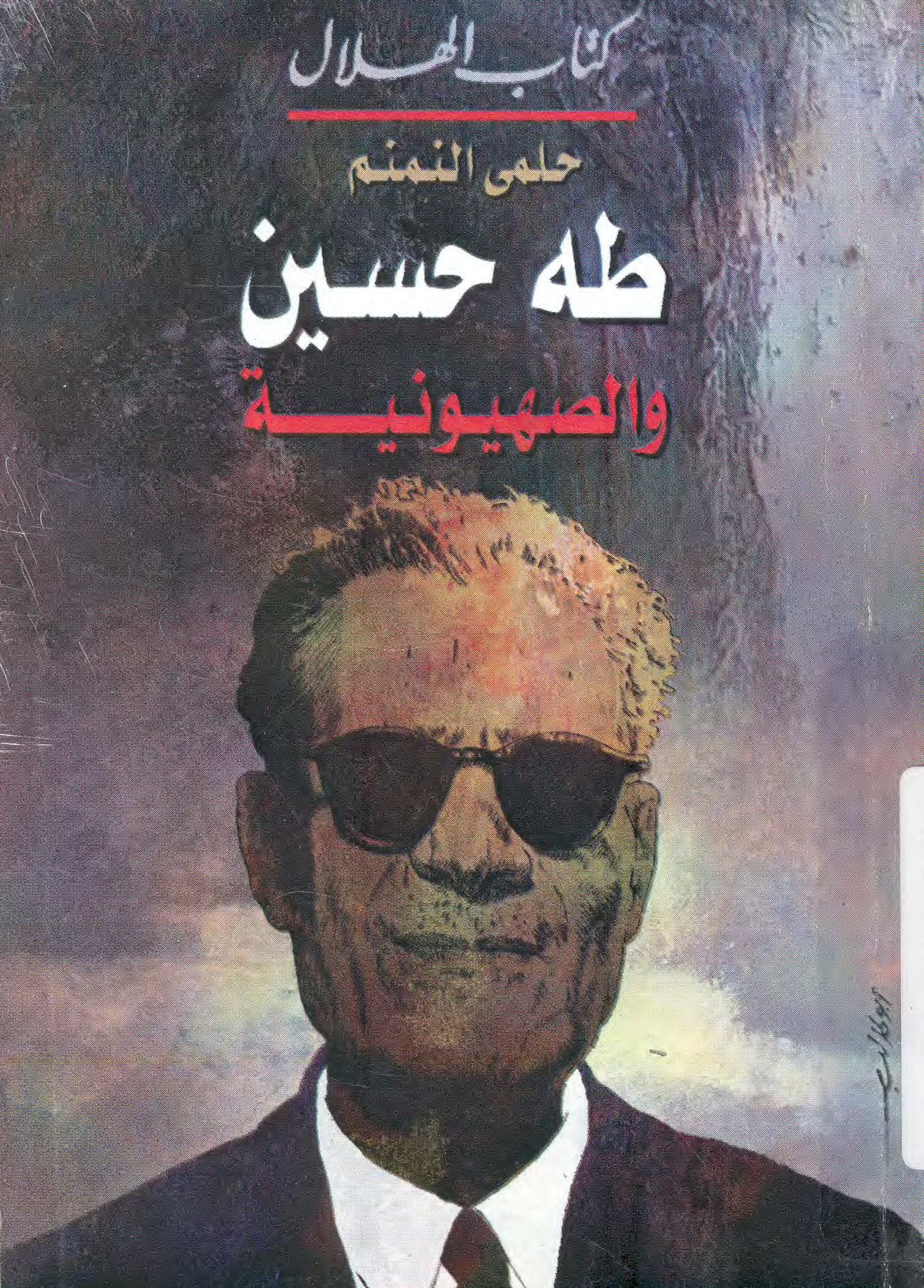


كتاب الهلال
حلمى النمنم
طه حسين
والصهيونية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفني

محمد أبو طالب

المدير الفني

محمود الشيخ

مدير التحرير

أحمد شامخ

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) - المكاتبات: ص.ب ٦١٠ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع

تلكس:

Telek: 92703 hilal u n

فاكس:

FAX : 3625469

الإصدار الأول / يونيو ١٩٥١



الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٧٢ جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٧٥ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٤٥ دولاراً - باقي دول العالم ٧٥ دولاراً.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

ثمن النسخة: سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان [illegible] ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٢,٥ جنية

البريد الإلكتروني: darhilal @ idsc. gov. eg

طه حسين والصهيونية

حلمى النمنم

الغلاف للفنان : محمد أبو طالب

مستشار التحرير: محمد رضوان

مقدمة

وصم جيل الثلاثينيات والأربعينيات من المفكرين والنقاد، بأنه الجيل الذي لم يتابع ما كان يجري علي أرض فلسطين وقتها ولم ينشغل بها، جيل العقاد وطه حسين ، هؤلاء لم ينتبهوا إلي الهجرات اليهودية المتزايدة إلي فلسطين ، ولا إلي المستعمرات الصهيونية والمنشآت الإسرائيلية علي أرض فلسطين.

قال ذلك عدد غير قليل من كتاب الجيل اللاحق عليهم، بعضهم ردده باتهام وصل إلى حد الإدانة القاطعة ، وبعضهم حاول أن يبرره ويعتذر عنه ، وبينهم من قاله بسعادة غامرة ورضا تام، كل لمعني خاص به .. قاله كتاب عابرون وقاله أيضاً من يعدون ثقات ويزنون كلامهم وأقوالهم قبل النطق بها، صدر هذا الرأى (الاتهام) عن كتاب من مختلف التيارات الفكرية والسياسية ، يمكن أن تراجع في ذلك كتاب أنور الجندى عن طه حسين الصادر سنة ١٩٧٨ ، وكذلك كتاب د. عواطف عبد الرحمن «مصر وفلسطين» الذى طبع عدة مرات

ولاقى نجاحا كبيرا وانتشارا واسعا ، ولنقرأ معا قول ناقد أدبى في وزن وقيمة رجاء النقاش بمجلة الهلال - مايو ١٩٧٧- «إن طه حسين ومعظم أبناء جيله في مصر لم يفهموا القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية فهما صحيحا، والجيل الذي فهم القضية الفلسطينية وفهم الحركة الصهيونية هو الجيل الذي ظهر في مصر منذ سنة ١٩٤٨ وما بعدها ، ويقول أيضاً «الحركة الصهيونية لم تكن واضحة أمام معظم المفكرين المصريين».

ويحاول رجاء أن يقدم تفسيراً أو تبريرا لعدم فهم الحركة الصهيونية لدي ذلك الجيل باحتمال من إثنين «لعل الكثيرين منهم لم يكونوا يتصورون أن الأمور ستتطور إلى حد إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين، لنقص فى المعلومات لديهم أو لسوء التقدير للحجم الذى كانت عليه الحركة الصهيونية في العالم وفي فلسطين أو لانشغال أذهانهم بالمشكلة الوطنية عن غيرها من المشاكل العربية..»

تبريرات وتفسيرات رجاء النقاش هي «ألطف» التبريرات واكثرها تهذيبا إذ كان يقدر الانجاز

الأدبى والفكرى لرجال هذا الجيل، لكن هناك من وصل به الأمر إلي اتهام ذلك الجيل بالخيانة وبالعمالة للاستعمار وللصهيونية .

الواقع أن فهم جيل الثلاثينيات والحكم عليه بهذه الطريقة ، كان مريحا ومرضيا لكل الأطراف والتيارات تقريباً.

● القوميون من جيل ما بعد قيام إسرائيل ، الذين تصدروا المشهد الثقافي والسياسي منذ الخمسينيات وحتي حرب يونية ١٩٦٧ ، يرضيهم أن يكونوا هم من انتبه ونبه . بل قاوم وحاول المواجهة ، مواجهة إسرائيل، حتي لو فشلوا ، ولم يحققوا انتصارا علي إسرائيل ولا استعادوا حقوق الشعب الفلسطيني ، وفي الأعماق أنهم هم الذين تصدوا للإستعمار ، بينما الجيل السابق عليهم «هادن» الاستعمار أو تعامل معه.

● الإسلاميون والأصوليون يصرون علي أنهم أول من دعا إلي الجهاد في فلسطين، ويتوقفون عند دور جماعة الإخوان المسلمين في حرب ١٩٤٨ ، وأنهم كانوا قادرين علي سحق إسرائيل لولا أن حكومة النقراشي باشا لم تسمح لهم بذلك

ولم تتركهم يقومون بمهمتهم المقدسة ، واكثر من ذلك حاصرتهم وضيقت عليهم ، ويسعفهم فى هذا الموقف أن أحدا لم يدرس بشكل كاف وبروح علمية منصفة حجم العمليات التي قاموا بها هناك ومداها.

●الليبراليون الجدد ودعاة التطبيع، بالإضافة إلى أنصارهم في بعض الدوائر الغربية من دعاة السلام بين العرب واسرائيل ، وإقامة علاقات طبيعية معها يشيعون ذلك ، ويؤكدون عليه ، وهدفهم أن الجيل الليبرالي الذي عاصر وعايش تكوين دولة إسرائيل ، لم يدع إلي الصدام معها، ولم يجد فى إقامتهاغضاضة ، بل كانوا مسالمين لها ومعها، ومن ثم فإن السلام والعلاقات الطبيعية بين العرب وإسرائيل هي الأصل، أما العداء لها والحرب معها ، فهو الاستثناء وهي فترة عابرة ، فضلاً عن أنها فترة شمولية وغير ليبرالية !!

وحين فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، أثار عدد من الكتاب، بينهم المبدع الكبير د. يوسف إدريس موقف محفوظ المساند للسلام، باعتبار أن ذلك الموقف كان «العنصر الحاسم» في

فوزه بالجائزة الكبري على مستوي العالم، وردد بعض المدافعين عنه، في صوت خفيض بأن «الجيل الليبرالي» كله وليس نجيب محفوظ وحده، كان مع السلام منذ البداية ولم يكن ضد قيام دولة إسرائيل، أي قبل اشتعال حرب ١٩٤٨!

الغريب في كل ذلك أننا لم نتوقف بجدية أمام كتابات أفراد ذلك الجيل لنتأكد أولاً من صحة الوصف ومصداقيته .. وهل الاتهام الذي نوجهه إليهم أو الثناء عليهم في هذه القضية نابع من وقائع وحقائق تسنده أم جاء من حكم متسرع صدر علي ذلك الجيل في لحظة تمرد عليه ..؟ هل هم فعلاً لم ينتبهوا ولم ينبهوا .. ألم يستشعروا الخطر؟هل هم أخطئوا التقدير .. أم أنهم كانوا منتبهين ، لكن الأمر لم يكن يعنيهم ولم يكن يزعجهم التواجد الصهيوني المتزايد علي أرض فلسطين ؟!

شغلتني هذه التساؤلات وغيرها منذ سنوات بعيدة، وحاولت في كتاب سابق هو «المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين» - صدر سنة ٢٠٠٧ -تناولت فيه موقف - رشيد رضا وشكيب أرسلان

وجورجي زيدان وشبلي شميل، فقد كتبوا وتابعوا القضية منذ بداياتها الأولي في نهاية القرن التاسع عشر وحتي قيام الحرب العالمية الأولي ، أي قبل صدور وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧ .

وفي العام الماضي - اكتوبر ٢٠٠٩ - صدر عن هذه السلسلة كتاب جورجي زيدان «الصهيونية تاريخها وأعمالها» قدمت فيه كتابات زيدان حول فلسطين في رحلته إليها قبل وفاته.

ونحن اليوم بإزاء كتاب آخر حول فلسطين والصهيونية وإسرائيل في عقل وكتابات عميد الأدب العربي د. طه حسين ، ليس - فقط - لأن طه حسين من أبرز كتاب جيل الثلاثينيات والأربعينيات ، الجيل المتهم بالغفلة أو الصمت بل لأن الأمر في حالة طه حسين تجاوز ذلك بالمرة، ويلغ حد اتهامه بالعمالة للصهيونية ولليهود وأنه يكره فلسطين ، ولم يذكرها بكلمة .. وخلال الصفحات القادمة نتبين كم تجني هؤلاء علي طه حسين ، هم لم يتابعوا كتاباته جيدا ولعلهم لم

يتابعوه نهائيا..ومن منطلق الكراهية الأيديولوجية له ولأسباب لا علاقة لها بفلسطين أو بإسرائيل ، راحوا يلصقون به ما يرونه كريها ، وغير وطني وغير إسلامي.

ولأنه طه حسن ولأن الأمر يتعلق بضميره الوطنى والإنسانى، كان هذا الكتاب، راجيا وداعيا الله أن يكون إضافة وأن يكون مفيدا وممتعا للقارئ.

حلمى النمنم

الباب الأول:

طه حسن: حياته وفكره

الفصل الأول:

الأذن قبل العين

لم تحظ سيرة ذاتية لكاتب من كتابنا المعاصرين بما حظيت به سيرة د. طه حسين «الأيام»، التى صدرت فى أجزاء ثلاثة، تناول الأول منها مولده وطفولته فى القرية واختص الثانى بمجيئه إلى القاهرة ودراسته فى الجامع الأزهر وركز الجزء الثالث والأخير على انتقاله من الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم بعثته العلمية إلى فرنسا وعودته إلى مصر حاملاً الدكتوراه ومعه زوجته الفرنسية سوزان وابنته الطفلة أمينة، وتوقف فى كتابة أيامه عند هذا الحد، وقد انقضى بعد عودته من بعثته أكثر من نصف قرن، لم يتناولها هو، وإن كنا نجد صدى هذه السنوات فى كتاب زوجته سوزان طه حسين الذى كتبته بالفرنسية عنه، بعد وفاته وعنوانه «معك»، لذا فرغم شهرة «الأيام» فإنها تعطينا صورة عن المراحل الأولى فى حياته، وهى مرحلة النشأة والإعداد والتكوين، أما فترة الإبداع والإنتاج فهى متروكة للباحثين والمهتمين بطه حسين يتابعونها ويحاولون تقديم تصور أو

موقف لها ومنها.

لم يكن طه حسين مهتما، فى «الأيام» بتقديم سيرة ذاتية بالمعنى المعروف والتقليدي، وربما لم يكن مهتما بتقديم سيرته الذاتية، ولكنه كان يملى حديثا ليخلص بإملائه من بعض همومه ومنغصات الحياة يقول «وللناس مذاهبهم المختلفة فى التخفف من الهموم والتخلص من الأحزان، فمنهم من يتسلى عنها بالقراءة، ومنهم من يتسلي عنها بالرياضة، ومنهم من يتسلى عنها بالاستماع للموسيقى والغناء، ومنهم من يذهب غير هذه المذاهب كلها يمنى نفسه ويفر من حياته الحاضرة وما تثقله به من الأعباء (١): «ثم يقول «ولست أدرى لماذا رجعت ذات يوم إلى ذكريات الصبا، وأتحدث بها إلى نفسى لأنسى بهذا الحديث أثقال الشباب.

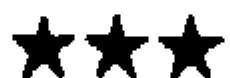
ثم لم أكتف بالتحدث إلى نفسى فيما بينى وبينها، وإنما تحدثت إليها حديثا مسموعاً، فأمليت هذا الكلام على صاحبى فى رحلة من رحلات الصيف، ثم ألقيته جانبا ونسيته أو كدت

---

(١) مقدمة طه حسين للطبعة الخاصة بالمكفوفين من «الأيام»، وقد وقعها فى ديسمبر ١٩٥٤، وقد أملى طه حسين فصول الجزء الأول من «الأيام» فى أعقاب أزمة كتابه فى الشعر الجاهلى»، ربما فى صيف سنة ١٩٢٧ .

أنساه».

ومع ذلك فإن هذا الحديث الذى أملاه فى لحظة ضيق يقدم بانوراما إنسانية واجتماعية للحياة المصرية فى الريف عموما والصعيد تحديدا، نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.



ولد طه حسين فى «عزبة الكيلو» على مقربة من مدينة مغاغة بمحافظة المنيا، شمال الصعيد، وقد صارت «عزبة الكيلو» الآن جزءا من المدينة، كان مولده فى نوفمبر سنة ١٨٨٩، وهى فترة عصيبة على مصر، كانت بريطانيا قد احتلت بلادنا، إثر فشل الثورة العرابية، قبل سبع سنوات من مولده، وأدى الاحتلال إلى الإضرار البالغ بفئات المصريين المختلفة، إلا المتعاونين معه، كان قد تم تسريح الجيش المصرى وتم تقليص ميزانية التعليم، أضير التجار والفلاحون وغيرهم، لكن بقى لصغار الموظفين راتبهم الثابت، وهكذا كان حال والد طه حسين.. وهذا ما جعله يتحمل مسئولية أسرة كبيرة العدد، كان لديه من الأبناء والبنات (١٣)، كان طه هو السابع بينهم وبين هذا العدد هناك ١١ أشقاء كان طه هو

الخامس فى الترتيب، ولا نعرف شيئاً عن زوجة الأب الأخرى، هل توفيت.. أم طلقت..؟ هل جمع الأب بينهما..؟ تصمت «الأيام» عن هذه الجزئية، وكان بين هؤلاء الأبناء، فتى يتعلم فى الأزهر ويحمل لقب «شيخ» وآخر يتعلم فى المدارس المدنية، أى التعليم الحديث بالقاهرة، وكان الأزهرى والفتى المدنى يعودان إلى القرية فى الصيف، وإلى جوارهما كان يعيش بالبيت الجد، الذى لم يحبه طه حسين، وكان يعيش كذلك «عم» له، أى شقيق للأب، هؤلاء - جميعا - كان والده يتولى رعايتهم.

فى تلك الفترة - العقد الأخير من القرن التاسع عشر - لم يكن هناك فى الصعيد من وسائل للترفيه ولا للتسلية مما نعرفه اليوم، لم تكن الإذاعة قد ظهرت بعد، ولا الصحف والمجلات انتشرت ولا عرفت مراكز الشباب أو بيوت الثقافة والنوادي، كانت الوسيلة المتاحة هى الشاعر الذى يلقى فى الناس القصص والملاحم الشعبية عن الهلالى والزناتى والظاهر بيبرس، وأذكار الصوفية وموالدهم وما يصاحبهم من إنشاد ديني، وكان الطفل طه يستمع كل ليلة إلى هؤلاء الشعراء وحفظ عنهم بعض الأبيات عن القصص الشعبي..

ترى هل كان ذلك ما جعل د. طه حسين فيما بعد يهتم بدراسة الأدب الشعبي فوجه تلميذته سهير القلماوى إلى دراسة ليالي ألف ليلة وليلة..؟

كان يستمع لهذه القصص بعد صلاة العصر من أصدقاء والده الذين يأتون إليه كل يوم، أما في الليل فينشدهم الشاعر، وهذا هو المتاح أمامه وأمام أهل القرية أجمعين يقول في الأيام «كان أهل القرية يحبون التصوف ويقيمون الأذكار، وكان صاحبنا يحب منهم ذلك؛ لأنه كان يلهو بهذا الذكر، وبما ينشده المنشدون أثناءه. ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغاني والتعدد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأوعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة. وحفظ إلى ذلك كله القرآن».

استمع إلى القصص من الشعراء من أصدقاء والده، أما الأوراد فقد استمعها وحفظها من جده في البيت الذى كان «يستيقظ آخر الليل ليقرأ (ورد سحر) وكان ينام في ساعة متأخرة بعد أن يصلي العشاء ويقرأ ألوانا من الأوراد والأدعية شيئاً كثيرا..» أما أغنيات العديد المعروفة في صعيد مصر فقد تعلمها من والدته، ومن أخواته «والنساء في قرى

مصر لا يحببن الصمت ولا يملن إليه، فإذا خلت احداهن إلى نفسها ولم تجد من تتحدث إليه، تحدثت إلى نفسها ألوانا من الحديث فغنت إن كانت فرحة وعددت إن كانت محزونة. وكل امرأة في مصر محزونة حين تريد، وأحب شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يذكرن آلامهن وموتاهن فيعددن، وكثيرا ما ينتهي هذا التعديد إلى البكاء حقا». وينتقل من العام إلى الخاص بالقول».. وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع إلى أخواته وهن يتغنين، وإلى أمه وهي تعدد. وكان غناء أخواته يغيظه ولايترك في نفسه أثرا، لأنه كان يجده سخيفا لا يدل على شيء، في حين كان تعديد أمه يهزه هزا عنيفاً. وكثيرا ما كان يبكيه . وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيرا من الأغاني وكثيرا من التعديد».

ولا يتم الحديث عن ثقافة طه حسين في طفولته دون التوجه إلى جانب آخر أشار إليه هو، كان يخاف الليل، فالليل طويل، خاصة في الشتاء، ولا توجد كهرباء ولا إنارة في الشوارع أو البيوت.. ولذا كان الخيال عامرا بالخوف من الأشباح والعفاريت، وهو كان ينام الليل وقد أخفى جسمه باللحاف، لايترك لنفسه فرصة حتى للتنفس «كان واثقا أنه إن

كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف، فلابد من أن يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التى كانت تغمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه، والتى كانت تهبط تحت الأرض متى أضاءت الشمس واضطرب الناس..» ويستطرد قائلا: «إذا أوت الشمس إلى كهفها، والناس إلى مضاجعهم وأطفئت السرج، وهدأت الأصوات، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطرابا وتهامسا وصياحاً..»

كان ذلك جزءاً من ثقافة المجتمع الريفى آنذاك، وربما إلى اليوم.

★★★

فى السادسة من عمره أصيب الطفل طه بداء أو مرض فى عينيه، ربما كان الرمد، ولم يتم علاجه منه بأسلوب صحيح، وكانت النتيجة أن فقد بصره تماما فى تلك المرحلة المبكرة، وكل ما يذكره عن العلاج الذى كانت أسرته تستعمله فى السطور التالية «.. تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامه، وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه

على فخذ أمه، ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ولا يجدى عليه خيراً، وهو يألم ولكن لا يشكو ولا يبك لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكّاءً شكّاءً».

ولابد من القول أن الطب فى مصر، إبان تلك الفترة، كان ضعيفا ومتراجعا، أصيب طه حسين فى عينيه سنة ١٨٩٥، وكان السائد وقتها هو الطب الشعبي، صحيح أن مدرسة قصر العيني كانت موجودة منذ عصر محمد علي، لكن الطب الحديث لم يكن يستعمل على نطاق واسع، فى القاهرة كان يستعين به أبناء الطبقة الأرستقراطية وبعض شرائح من كبار الموظفين، الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطي، أما عموم الناس فى العاصمة فكانوا يعالجون بالرقية والأعشاب والوصفات البلدية، فما بالنا بالحال في الريف المصري، ولذا يصعب أن نلوم أسرة طه حسين أو نتهمها بالتقصير فى علاجه، وليتنا نتذكر قصة يحيي حقى «قنديل أم هاشم» ونعرف أنه كتبها من خلال تجربة حية عرفها هو، ولم تكن كلها خيالاً.. كانت تعكس وضعا اجتماعيا عاما ومنتشراً.. القصة تعالج مشكلة فتاة فى منطقة السيدة زينب بالقاهرة، أصيبت عيناها فكانت

تعالج منها بزيت القنديل، كان ذلك فى مطلع القرن العشرين، فما بالنا بما قبل ذلك، خاصة فى الصعيد، وهكذا فمن كان يفلت من المرض ويعيش، فإنه يعيش قضاء وقدراً ومن يموت يذهب كذلك.

كان الأطفال المصريون فى القرى عرضة لأمراض عديدة وأوبئة كثيرة مثل الملاريا والتيفود والجفاف وأحيانا الكوليرا والسل وكذلك الرمد.. حيث البيئة متربة، مليئة بالغبار والذباب ومستوى النظافة متواضع، يحدثنا طه حسين أن السيدات كن يأتين بماء الشرب من الترعة.. حيث الطمى والبلهارسيا وغيرها.. المهم كان نصيب طه حسين من هذا كله أن يفقد بصره فى سن السادسة، وأن يعيش عمره مكفوفاً، ولم يطلق على إصابته «عاهة»، بل أسماها «آفة».. وقد لعبت هذه «الآفة» دورا محوريا فى حياته وعلاقته بالآخرين وأولهم أفراد أسرته، وقد تحدث هو عن ذلك الدور فى تقديمه لكتاب الأيام – الطبعة الخاصة بالمكفوفين – قائلاً «وقد تأثر بهذه المحنة تأثراً عميقاً قاسيا، لا لشيء، إلا لأنه أحس من أهله رحمة له وإشفاقا عليه، وأحس من بعض الناس سخرية منه وازدراء له. ويقول معاتباً ولائماً «ولو قد عرف أهله كيف يرعونه دون

أن يظهروا له رحمة أو إشفاقاً، ولو قد كان الناس من رُقى الحضارة وفهم الأشياء على حقائقها بحيث لا يسخرون من الذين تعتريهم بعض الآفات، لا يرثون لهم ولا يظهرون لهم معاملة خاصة يتكلفونها تكلفا، لو قد كان من هذا كله، لعرف ذلك الصبى وأمثاله محنتهم فى رفق. ولاستقامت حياتهم بريئة من التعقيد كما تستقيم لكثير غيرهم من الناس.».

يقول أرسطو من «من فقد حساً فقد علما»، لكن فى مجتمعنا من يفقد البصر يمكن أن يفقد بسببه الكثير، أكثر مما قال أرسطو .. طه حسين يقول عن نفسه فى هذه الحالة «كان من أول أمره طلعة لا يحفل بما يلقى من الأمر فى سبيل أن يستكشف ما لا يعلم. وكان ذلك يكلفه كثيرا من الألم والعناء، ولكن حادثة واحدة حدت ميله إلى الاستطلاع، وملأت قلبه حياء لم يفارقه إلى الآن».

أما الواقعة فحدثت أثناء تناول طعام العشاء ذات يوم فى منزله بين والديه وأخوته، فقد عن له أن يتناول لقمة الخبز بكلتا يديه، وغمسها فى الطبق، مما أثار ارتباكا أثناء العشاء. «فأما إخوته فاغرقوا فى الضحك وأما أمه فأجهشت بالبكاء. وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين: ما هكذا

تؤخذ اللقمة يا بني.. وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته» ثم يقول «من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والإشفاق والحياء لاحد له. ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية. ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين. حرم على نفسه الحساء والأرز، وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق، لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة، وكان يكره أن يضحك إخوته، أو تبكى أمه، أو يعلمه أبوه فى هدوء حزين».

وإذا كان ذلك حال إخوته فكيف يكون حال الآخرين أو الغرباء، وهذا ما جعله يفرض على نفسه قيودا فى تناول الطعام، يأكل بحذر وتؤدة ولا يستمتع بطعام، ويتجنب أن يأكل أمام أحد، الأمر الإيجابى فى هذه الواقعة أنها جعلته يتفهم ما يذكره الرواة عن أبي العلاء المعرى وما كان يعانيه فى تناول الطعام، مما جعله لا يأكل أبدا أمام أحد.. وتواصلت علاقة طه حسين بالمعرى طيلة حياته ووضع عنه كتابين.. وكانت رسالته للدكتوراة بالجامعة المصرية عن المعرى، وجعلته تلك «الآفة» يهتم أكثر وأكثر بالاستماع إلى ما يقوله شاعر القرية وما يحكيه أهل القرية عن الملاحم

الشعبية.

★★★

فى التاسعة من عمره أتم حفظ القرآن، وذهب معه «سيدنا» إلى البيت حيث كان «الشيخ» والده فى الانتظار، وكان سيدنا يريد من الشيخ أن يمتحن ابنه فى الحفظ، لكن الشيخ لم يفعلها، كان «سيدنا» يريد ذلك كي ينال المكافأة المتوقعة، وهى «عشوة دسمة» ثم «جبة وقفطان وزوج من الأحذية وطربوش مغربى وطاقية من القماش الذى تتخذ منه العمائم وجنيه أحمر، لا يرضى بشيء دون ذلك.»

ويبدو أن هناك مبالغة في الأمر، ولا أدرى هل هى مبالغة من د. طه وهو يكتب، أو بسبب تباعد السنوات حين كان يكتب أم مبالغة من «سيدنا» فى توقعاته.. لكن المفاجأة أن «سيدنا» لم ينل شيئاً من ذلك، فقط تناول الوجبة الدسمة.. وأخذ طه يتردد علي الكتاب، لكنه أهمل مداومة قراءة القرآن استنام هو وسيدنا إلى أنه حفظ وصار يحمل لقب «شيخ»، ومضت الأيام وعاد إلى البيت فوجد مع والده ضيفان وهما من المشايخ أيضا، أراد والده أن يباهى به أمامها أنه يحفظ القرآن الكريم وهو فى تلك السن وكذلك وهو فى حاله، أى بلا

بصر.. لكنه خذل والده، طلب منه أن يقرأ سورة «الشعراء» فلم يتمكن، ثم طلب منه أن يقرأ سورة الأنفال وتبين أن نسيها ثم سورة القصص، فعجز وكأن لسانه قد خرس .. صرفه والده في رفق وغضب مكتوم، لكنه أعلن غضبه من «سيدنا» الذى لا يراعى تلميذه ولا يراعى عمله ورغم أن سيدنا أكد للوالد أن ابنه يحفظ وأنه يتابعه بنفسه لكنه أعلن رأيه صراحة للفتى الصغير «عوضنى الله خيراً» فيما أنفقت معك من وقت وما بذلت من جهد، فقد نسيت القرآن ويجب أن تعيده. ولكن الذنب ليس عليك ولا عليّ، وإنما هو على أبيك، فلو أنه أعطانى أجرى يوم ختمت القرآن لبارك الله له فى حفظك، ولكنه منعنى حقى فمحا الله القرآن من صدرك.

يعترف طه أنه أهمل وأن الإهمال مشترك بينه وبين «سيدنا»، فقد مضت شهور دون أن يفتح المصحف ودون أن يحاول قراءة القرآن، رغم أنه يذهب يوميا إلى الكتاب، لكن «سيدنا» أي شيخ الكتاب فسر الأمر على هواه، وأن نسيانه لما حفظه هو عقاب إلهى وانتقام سماوى من والده، لأن الوالد لم يدفع لسيدنا ما توقعه أو كان ينتظره.. على أى الأحوال عاد سيدنا للاهتمام بالفتى طه وفى مدة وجيزة أعاد حفظ

القرآن الكريم، وأخذه إلي والده معتزا بما تحقق، ومؤكدا أن طه لم يكن قد نسي القرآن.. وطمأن الوالد إلى أن ابنه حفظ بالفعل كتاب الله.

بقي عليه أن يذهب إلى الكتاب انتظاراً لعودة شقيقه من الأزهر ليصحبه معه كي يتعلم هو الآخر في الأزهر، ولم يكن هناك من شروط للالتحاق بالجامع والدرس فيه سوى أن يكون المتقدم حافظا لكتاب الله، وتركه «سيدنا» مع العريف كي يقرأ عليه كل يوم ستة أجزاء من القرآن ليتمه كل خمسة أيام، هي عدد الأيام التي كان يتردد فيها على الكتاب؛ وفي اليوم الأول التزم مع العريف وفي الثاني، لكن في الثالث كان واضحا أنه لا يريد أن يواصل. العريف ليس راغبا وهو كذلك لايريد، وهكذا تم الاتفاق - التواطؤ - بينهما على أن يقرأ هو مع نفسه.. ولم يتوقف العريف عند هذا الحد، بل راح يهدده بين حين وآخر أنه سيخبر «سيدنا» بأنه وجد بعض السور «متعتعة» عنده، أي أنه لا يحفظها جيدا، ومن ثم كان يشتري صمت العريف بأن يقدم له الخبز والفطير الذي يأتي به من البيت ويدفع له القرش الذي يتلقاه من والده كل أسبوع .. «وكم نزل عن طعامه الذي كان يحمل إليه من البيت ظهر كل

يوم، وإنه لشديد الجوع، ليأكل العريف مكانه، ولا يخبر سيدنا بأن القرآن عنده متعتع..»

مضى الأمر على هذا الحال بينه وبين العريف، وتوطدت الصلة بينهما، ثم أخذ العريف يستعين به ليتولى عنه بعض صبية الكتاب ويقوم بأمره وكأنه هو «العريف».. فسار معهم سيرة العريف معه، وبدأ يتلقى «الرشوة» هو الآخر من هؤلاء الصبية واختلفت أنواع الرشاوى التي يتلقاها ولكن لونا من الرشوة خاصا كان يعجبه، ويشجعه على أن يهمل واجبه أشنع الإهمال، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب، فإن استطاع الصبي أن يقص عليه أحدوثة أو يشترى له كتابا من هذا الرجل الذى يتنقل بالكتب فى قرى الريف أو يتلو عليه فصلا من قصة الزير سالم، أو «أبى زيد» فهو واثق بما شاء من رضا، ورفقه ومحاباته. ، وكان أفضل من يقدم له هذا اللون صبية كفيفة اسمها «نفيسة»، أرسلها أهلها إلى الكتاب لتحفظ القرآن، فحفظته، وأتقنت حفظه، ولذا تركها سيدنا للعريف، ثم أسلمها العريف إليه.. وكان والدها ثريا، لذا لم يكن صعبا عليها أن تقدم الحلوى وغيرها، لكن كان

---

(١) الشيخ هنا يقصد بها والده، أما «سيدنا» فالمقصود به شيخ الكُتّاب».

لديها امتياز آخر «.. كانت أحفظهم للقصص، وأقدرهم على الاختراع، وأحفظهم لألوان الغناء المفرح والتعديد المبكي، وكانت تحسن الغناء والتعديد معا. وكانت غريبة الأطوار، في عقلها شيء من الاضطراب، فكانت تلهى صاحبنا أكثر وقته بحديثها وتعديدها وأقاصيصها وألوان رشوتها.» ومن أسف أن طه حسين لم يحدثنا مفصلا عن هذه الفتاة، وما مصيرها بعد ذلك، لكنها نموذج لمواهب عديدة وقدرات متميزة لدى بعض الأفراد تظهر ثم لا تجد من يرعاها أو يكتشفها ولا تجد من الظروف ما يساعدها على النمو والازدهارفتذوب وتنتهى مع الأيام.

المهم أنه وسط ذلك كله، شغل طه عن القرآن الكريم ويقول هو «وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشي، ويخدع ويخدع، كان القرآن يمحى من صدره آية آية وسورة سورة، حتى كان اليوم المحتوم.. ويا له من يوم!».

خرج من الكتاب وذهب مع عدد من رفاقه إلى المسجد وصلى العصر ولعب معهم، وحين هم بالعودة وجد أن نعليه قد سرقا، فعاد إلى البيت حافيا ومتأخراً، ويبدو أن ذلك المشهد لم يعجب والده، فسأله عن موقفه مع القرآن الكريم،

فأجاب بأنه قد ختم اليوم على «سيدنا»، فهم بأن يمتحنه فيه، طلب أبوه أن يقرأ سورة «سبأ» فاكتشف أنه نسيها ثم سورة «فاطر» وأخيرا سورة «يس» فلم يفتح الله عليه بشيء، فصرفه والده متوعداً أن يثير الأمر مع «سيدنا».

خرج من أمام والده حزينا وذهب إلى «الكرار»، غرفة فى البيت أقرب ما نعرفه اليوم بغرفة المطبخ، وأقدم على عمل عنيف تجاه نفسه.. «وأهوى إلى الساطور وهو أغلظ ما كان عليها من سكين واحدة وأثقله، فأخذه بيمناه، وأهوى به إلى قفاه ضربا، ثم صاح وسقط الساطور من يديه وأسرعت أمه إليه..».

واعتبر كثير من الدارسين لطه حسين وحياته أن ذلك الفعل كان محاولة انتحار، وزاد ذلك بعد أن قدمها المسلسل التليفزيونى الذى أعد عن «الأيام» باعتبارها انتحاراً، والواقع أنها لم تكن كذلك، فهو قد ألقى الساطور، ولم يواصل الضرب، وهو كذلك صرخ ليسرع إليه من فى البيت، وحين ذهبت أمه إليه وجدت الأمر بسيطا.. «ما أسرع ما ألقت أمه نظرة إلى الجراح! وما أسرع ما عرفت أنه ليس شيئاً! وما هى إلا انهالت عليه شتما وتأنيباً، ثم جذبته من إحدى يديه

حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ، فألقته فيها إلقاء وانصرفت إلى عملها..»

والواضح أنه كان متألماً، يدرى أنه مخطئ، فقد أهمل القرآن وخدع والده وأسرته كما خدع «سيدنا» وأظن أنه أقدم على ذلك ليعيد إليه اهتمام من فى البيت وليجذب تعاطفهم معه، خاصة والده ووالدته، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، «إخوته وأخواته من حوله يضطربون ويلعبون، ولا يحفلون به ولا يلتفت إليهم..».. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، فقد استدعى إلى والده قبيل المغرب وهناك وجد «سيدنا»، ودار حوار عاصف بين الوالد وسيدنا.. وانتهى إلى ما يشبه الغضب وربما القطيعة بينهما.. وتوقف هو عن الذهاب إلى الكتاب وكان يلتقى رفاقه وأطلق لسانه فى سيدنا وفى العريف وكان الأولاد ينقلون إليهما ما يقوله، رغم أنهم كانوا يستثيرونه للحديث عنهما وكانوا يشاركونه الرأي.. ثم عادت المياه إلى مجاريها بين الوالد وسيدنا وعاد هو من جديد إلى الكتاب، ليتولاه سيدنا بنفسه ويستعيد معه القرآن الكريم، لكن ذلك الحادث ترك فى نفسه شيئاً تجاه الناس.. كان قد استمع إلى سيدنا مع والده وهو يقسم بأغلظ الأيمان ويحلف

بالطلاق أن طه يقرأ عليه القرآن يومياً، كان كذبه واضحا وصريحاً، فضلا عن أنه الحنث باليمين.. وكان والده يطلق أغلظ الأيمان المشابهة، رأى هذا واستوعب درسا مهما، يصف هو الموقف نفسه بالقول.. «فى هذا الأسبوع تعلم الصبى الاحتياط فى اللفظ، وتعلم أن من الخطأ والحمق، الاطمئنان إلى وعيد الرجال، وما يأخذون أنفسهم به من عهد. ألم يكن الشيخ قد أقسم ألا يعود الصبى إلى الكتاب أبداً؟ وها هو ذا قد عاد. وأى فرق بين الشيخ يقسم ويحنث! وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالا، وهو يعلم أنه كاذب؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه فيشتمون له الفقيه والعريف ويقرونه بشتمه، حتى إذا ظفروا منه بذلك، تقربوا به إلى الرجلين وابتغوا به إليهما الوسيلة..».

كان يتحمل ذلك فى صبر وجلد على أمل أن يترك هذا المجتمع كله إلى القاهرة، حيث الأزهر الشريف، كان ينتظر عودة أخيه الأزهرى.. وعاد بالفعل لكنه لم يذهب معه.. لم يتحرك من عزبة الكيلو ولا ارتدى العمامة والجبة والمركوب، فقد رأى أخاه أن يظل سنة أخرى فى القرية حتى يكبر بعض الشيء، وأعطاه ألفية ابن مالك وطلب إليه أن يحفظها كما

هي، وأعطاه أيضاً كتاب «مجموع المتون» طالبا أن يحفظ ما يمكنه حفظه.

زيارة أخيه الأزهرى هذه المرة كانت فارقة معه، فقد أدرك قيمة العلم ومعناه، جاء المولد النبوى الشريف، فجهزت الأسرة ملابس جديدة للأزهري، الذى اختير «خليفة» فى هذا المولد، وجاءه المريدون ينتظرون بفرس يركبه ويجد من يحملونه ليجلسوه على الفرس، وأناس يتقدمون أمامه وآخرون من خلفه، والناس تصفق وتهلل، أما النساء فيزغردن ويلقين بالبخور حوله وعليه، تجنبا للحسد، وكبار المنطقة يسيرون في موكبه، وبعض الرجال يطلقون الرصاص من بنادقهم فى الجو ابتهاجا به، أما والده فهو فى غاية الفخر وأمه تدعو له أن يجنبه «العين» وتتمنى له التوفيق وأخوته سعداء به وفخورون، موكب مهيب للأزهرى ، وحين يحاول أن يبحث عن سبب وتفسير لكل هذا الاهتمام والاحتفاء، فضلا عن الاحترام البالغ، فإنه لا يجد سوى تفسير وحيد« .. يطاف به فى المدينة وما حولها من القرى في هذا المهرجان الباهر، وما باله اتخذ خليفة دون غيره من الشبان؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألفية والجوهرة والخريدة». ويقوده هذا المشهد إلى نفسه

ومستقبله فلم لا يبتهج الصبى حين يرى أنه سيقرأ من العلم ما قرأ أخوه، وأنه سيمتاز من رفاقه وآثر أن يحفظ الألفية والجوهرة والخريدة، إنه في كلمة واحدة «العلم» لقد حفظ القرآن الكريم وآخرون غيره يحفظون كتاب الله، وسيدنا يحفظ كتاب الله أيضاً، ولكن لأنه لم يتعلم ولم يذهب إلى الأزهر لم ينل ما يناله أخوه «الأزهرى»، ومن يحفظون القرآن فى القرى كثر، يكون بعضهم مثل «سيدنا» ويذهب بعضهم إلي المقابر لتلاوة آيات القرآن ينالون بعدها «حسنه» من أهل الموتي.. أما العلم وحفظ الألفية وغيرها فله معنى آخر، رآه فيما حظى به الأزهري».

ومضى عاماً يقرأ الألفية وغيرها، وتعلم بعض الممارسات الصوفية وقرأ بعض كتبهم ووقع في يده عدة صفحات من كتاب ألف ليلة وليلة، وتردد على بيت قاضى المحكمة الشرعية يعلمه فن التجويد وهكذا كان مستعدا للسفر إلى القاهرة فى سنة ١٩٠٢ ليلتحق بالأزهر، لكن قبل السفر كان وباء الكوليرا قد حل في البلاد، خلال شهر أغسطس، وزار هذا الوباء بيتهم وفقد فيه أحد إخوته، وعرف الحزن طريقه إلى بيتهم، قبل الكويرا كان جده قد انتقل إلى العالم الآخر، وكذلك جدته

لأمه، وكان ذلك مقبولا فجدته وكذلك جده كان مسنين.

أما الفاجعة فكانت وفاة «الفتي»، أخاه بالكوليرا .. وإذا كان هو قد أفلت من الرمد بفقد عينيه فإن الكوليرا ذهبت بأحد أفراد الأسرة، وبعدها كان عليه أن يركب القطار إلى القاهرة، حيث الأزهر، ليصبح مجاورا وطالب علم، ويعرف معاناة من نوع آخر، معاناة الفقر وسوء الحال والمعيشة.

★★★

كان الأزهر جامعة بالمعنى التقليدى، وكان التعليم به مجانيا، وفوق ذلك يحصل الطالب أو المجاور على جراية، عبارة عن خبز يكفيه قليلا أو كثيرا للطعام، ولم يكن مطلوبا للالتحاق به غير أن يجتاز المتقدم امتحان القرآن الكريم، وقد اجتازه طه، وشعر أن الاختبار الذى كان يجريه له والده أقسى من ذلك الذى تعرض له في الأزهر، ظل طه يحضر دروس المبتدئين فى الأزهر لمدة ثلاث سنوات، لم يكن سعيدا بها، كان يعانى من «الآفة» التى ابتلى بها وتعوقه عن الانطلاق فى الحياة والاستمتاع بها فى العاصمة، وكانت طرق التدريس فى الأزهر مملة ولا تشبع فضوله ونهمه المعرفى، لكنه فى نهاية السنوات الثلاث حضر درسين

للأستاذ الإمام محمد عبده، قبل وفاته مباشرة، واعتبر نفسه من تلاميذ الإمام هو وعدد من أقرانه وأقران أخيه، يقول : «كان هؤلاء الشباب يضيقون بكتب الأزهر ضيقا شديدا، يتأثرون في ذلك برأى أستاذهم الإمام في كتب الأزهر ومناهجه، وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون درسه أو حين يزورونه في داره أسماء كتب قيمة في النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضا وكانت هذه الكتب القيمة بغيضة إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوه بها».

انتقل من دروس المبتدئين بعد ثلاث سنوات إلى دروس المتوسطين وكان التركيز فيها على الفقه وعلى النحو، وفى سنة ١٩٠٧ارتقى ليدخل دروس المتقدمين، وهى المرحلة التي تؤهله للحصول على شهادة العالمية ويصبح عالما من علماء الأزهر، فى هذه المرحلة المتقدمة تتلمذ على الشيخ بخيت فى الفقه الحنفى، والذى اعتبره أستاذه ورأى أنه فى النهاية لا يبتعد عن الأستاذ الإمام، وكان يفخر هو ورفاقه بالتتلمذ على هؤلاء المشايخ ليظهروا تميزا فى العلم عن غيرهم من

المجاورين وكان نبأ ذلك الفخر يصل إلى المشايخ الآخرين ومن بينهم الشيخ الأكبر إمام الأزهر حسونه النواوى ، لذا هم الشيخ الأكبر بابعاده عن الأزهر نهائيا لولا أن تدخل فى الأمر لطفى السيد.

كان قد تعرف على لطفى السيد فى دار «الجريدة» ، وكان طه قد بدأ يتردد على بعض الصحف وأخذ ينشر بها بعض مقالاته، وقد حقق له ذلك شيئا تمناه وحلم به وهو أن «يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء» .. ويقول كذلك «اشتد ضيق الفتى بالأزهر»، والذى حدث أنه كان قد اتصل بعبد العزيز جاويش، وشجعه الأخير على الكتابة والانتقاد الحاد كان جاويش منتميا إلى الحزب الوطنى، وكان كاتبا حاداً وأخذ منه طه حسن فى تلك الفترة الحدة فى الكتابة، وكان أن انتقد شيخ الأزهر ، وعرف أن الشيخ الأكبر قرر إذا تقدم هذا الشاب لامتحان العالمية أن يطاح به .. وكان ذلك معتادا - آنذاك - بالأزهر ، لذا كان بعض المجاورين يصلون إلى سن الخمسين من العمر دون أن ينالوا العالمية، لكن طه حسين كان قد فتح أمامه باب جديد للعلم هو الجامعة

المصرية .

الأيام الأخيرة له في الأزهر تشبه أيامه الأخيرة في الكتاب بالقرية، كان قد ضاق بالأزهر وسئم المقام فيه والجلوس إلي شيوخه يقول : «كان صاحبنا الفتى قد أنفق أربعة أعوام في الأزهر وكان يعدها أربعين عاما؛ لأنها قد طالت عليه من جميع أقطاره، كأنها الليل المظلم، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال، فلم تدع للنور إليه منفذا ..» ويقدم وصفا تفصيليا لتلك الفترة بالقول «حياة مطردة متشابهة لا يجد فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضي ..» ثم يعدد الدروس التي كان يتلقاها درس التوحيد بعد صلاة الفجر مباشرة ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس ودرس النحو بعد أن يرتفع الضحى، ثم يتناول «شيئا من طعام غليظ» ويعاود دروس النحو بعد صلاة الظهر ثم درس المنطق بعد صلاة المغرب «وهو في كل هذه الدروس يسمع كلاما معادا أو أحاديث لا تمس قلبه ولا ذوقه، ولا تغزو عقله، ولا تضيف إلى علمه علما جديدا . فقد تربت في نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون، وأصبح قادرا على أن يفهم ما يكرره الشيخ من غير طائل .. كان قلقا على مصيره

ومستقبله، فعليه أن يقضى سنوات أخرى قد تطول بالأزهر، ولكنه سمع بالجامعة المصرية، ولم يكن يعلم عنها شيئا «لم يسمع هذه الكلمة من قبل، ولم يعرف إلا الجامع الذى كان ينفق فيه بياض النهار وشطرا من سواد الليل ، فما عسى أن تكون الجامعة، وما عسى أن يكون الفرق بينها وبين جامعه ذاك أو جوامعه تلك الكثيرة التى كان يختلف فيها إلى شيوخه . فما أكثر ما كان بعض الشيخ ينأون بدروسهم وطلابهم عن الأزهر، ويؤثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة فى الحى، وكان تنقل الفتى بين هذه المساجد يرفه عنه بعض الترفيه».

سأل عن الجامعة ووصله الخبر، ولم يجد من يقدم له تعريفا شافيا للجامعة، فقد عرف أنها «مدرسة لا كالمدارس ، وأحس أن ميزتها الكبرى عنده أن الدروس التى ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعممين وحدهم، بل سيكون فيهم المطربشون، وعسى أن يكونوا أكثر عددا من أصحاب العمائم.» .. المهم أنه شعر بالفرج يقترب منه وأن «غمته تلك توشك أن تكشف ، وبأن غمرته تلك توشك أن تنجلى» ما كان

يقلقه ولم يبح به لأحد هل تقبله الجامعة بآفته تلك، وهل في الجامعة مكان للمكفوفين أم أنه لا فرصة أمامهم غير الأزهر .. وانطلق مع زميلين له، خرج الثلاثة من الأزهر بعد أن انتهى درس البلاغة وذهبوا إلى الجامعة، وكان الشرط الوحيد لحضور دروسها والانتظام بها هو أن يدفع كل منهم مبلغ جنيه واحد .. وأحدث ذلك لهم صدمة، كان غريبا عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلا. فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألفوه، وإنما تعودوا أن يرزقوا أرغفة في كل يوم ليطلبوا العلم في الأزهر، وقد وجدوا بعض ما يقيم الأود، وكان أداء ذلك الجنيه عليهم عسيرا، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر في أداء ثمنها..»

كان الدرس الأول في الجامعة عن «الحضارة الإسلامية» يلقيه أحمد زكي بك، ويرصد الطالب لنا الفرق بين المحاضر في الجامعة والمحاضر في الأزهر، في الجامعة بدأ المحاضر كلامه إلى الطلاب أنفسهم وفي الأزهر يبدأ الشيخ متجها إلى الله عز وجل، وفي الجامعة لا يبدأ المحاضر كما في الأزهر «قال المؤلف يرحمه الله، بل بكلام من عنده هو- أي كلامه هو، وهو يقول كلاما بسيطا .. سلسا ومفهوما ، بلا تعقيد،

وكلامه واضح بذاته لا يحتاج شروحاً أو تفسيرا .

انتظم بالجامعة ، وظل يتردد على الأزهر، وأصبح «لا يمنحه من الوقت إلا أقصره ومن الجهد إلا أيسره» وانقطعت صلته تماما بالأزهر سنة ١٩١٢، ولم ينزعج من ذلك، ضايقه فقط أن والده ووالدته أصابهما الحزن لأنه ترك الأزهر ولن يصبح عالما من علمائه، أما هو فقد استمر يدرس بالجامعة ونال منها الدكتوراه، وكانت أول دكتوراه تناقش بها فى ٥ مايو ١٩١٤، وكانت حول «أبى العلاء المعرى» وكادت تحدث مشكلة حولها، فقد طالب أحد أعضاء الجمعية التشريعية (برلمان ذلك الزمان) بحرمان الطالب طه حسين ومعاقبة الجامعة لأنها قبلت رسالة فيها «كفر وإلحاد» ، لكن رئيس الجمعية التشريعية وكان سعد زغلول أقنع العضو بسحب طلبه، الذى سوف يضر بالأزهر أيضا، ذلك أن طه حسين هو ابن الأزهر وتعلم فيه .

بعد الدكتوراه أوفدته الجامعة فى بعثة علمية إلى فرنسا، والحقيقة ان هذه البعثة جاءته بعد إصرار منه، فقد طلب إلى الجامعة فى سنة ١٩١٣ أن توفده فى البعثة وتم الاعتذار له ووعدوه بأن ينظروا فى الأمر بعد عام لأن البعثات استكملت،

وكان المقصود صرفه والاعتذار عنه بطريقة بيروقراطية؛ ربما لأنه كفيف، لكنه أصر وعاود الطلب وأراح الجامعة من العناء، هو سوف يحتاج إلى مرافق، والجامعة ليس لديها ميزانية لمرافق فحلّها هو وتعهد بأن لا يكلف الجامعة مليما زيادة، وأنه سوف يقبل البعثة بالمرتب الذى تصرفه الجامعة للطالب العادى وسوف يقتسم المبلغ مع المرافق، وهكذا سافر ليدرس فى جامعة مونبلييه، ولكنه أعيد في العام التالى بسبب أزمة مالية ألمت بالجامعة ، ولما انفرجت الأزمة عاد من جديد إلى فرنسا سنة ١٩١٥ ليلتحق بكلية الآداب ودرس التاريخ الحديث ودرس علم الاجتماع على يد عالم الاجتماع إميل دوركايم، وهو الذى أشرف على رسالته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية وفى سنة ١٩١٧ نال درجة الليسانس فى الآداب من السوربون وتزوج من سوزان، شريكة حياته، وفى العام الثانى مباشرة نال الدكتوراه، وفى مطلع سنة ١٩١٩ تابع أبناء الثورة المصرية وهو فى فرنسا والتقى بسعد زغلول هناك، وعاد إلى مصر فى نفس السنة ليعين فى الجامعة المصرية أستاذا للتاريخ القديم، وتبدأ حياة طه حسين الناقد والمفكر الاجتماعي والمجدد الذى نعرفه.

المراجع

(١) د. طه حسين : الأيام (ثلاثة أجزاء في مجلد واحد) أصدرها مركز الأهرام للترجمة والنشر وتضم هذه الطبعة المقدمة الخاصة التى كتبها طه حسين طبعة ١٩٥٤ للطلاب المكفوفين بمصر.

(٢) سوزان طه حسين : «معك» ترجمة د. بدر الدين عرودكي ، الناشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩ وقد أصدر المركز القومي للترجمة طبعة جديدة منه سنة ٢٠١٠.

(٣) سامح كريم : ماذا يبقى من طه حسين .. الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٧.

(٤) د. سهير القلماوى : ذكرى طه حسين – سلسلة اقرأ دار المعارف.

(٥) د. مصطفى عبدالغنى : تحولات طه حسين – سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠.

الفصل الثانى :

معارك وقضايا كبرى

لم يتوقف طه حسين عن متابعة الواقع والقضايا العامة ، منذ أخذ يتردد على بعض الصحف وحين التقى بعبد العزيز جاويش ، كان ذلك فى بداية التحاقه بالجامعة المصرية، وقبل سفره في البعثة إلى فرنسا ، وحتى بعد أن عاد استمر على تلك المتابعة بل توسع فيها وأغرق فيها أحيانا .. وحين عين فى جامعة القاهرة بكلية الآداب مدرسا للتاريخ القديم ، لم يتعامل مع نفسه كأكاديمى بالمعنى التقليدى ، أى يعد المحاضرات ويلقيها على الطلاب وفى نهاية العام يضع لهم أسئلة الامتحان ويصحح الأوراق .. وينتهى دوره عند هذا الحد ، أى موظف بدرجة أستاذ جامعة .. هو أراد لنفسه شيئا آخر ، وهو أن يكون مساهما ومشاركا فى الشأن العام ، وقد فعل ذلك طوال الوقت ، فرأيناه عضوا فى اللجنة التى تشكلت لصياغة ووضع مواد دستور ١٩٢٣ وخاض مناقشات حادة حول صياغة المادة المتعلقة بدين الدولة فى الدستور، وظل يكتب للصحف ومنحازا فى تلك الفترة لحزب الأحرار

الدستوريين ، ومنتقدا لسعد زغلول حينا ومهاجما إياه حينا آخر . وهو بسبب ذلك دخل أو أدخل فى الكثير من المعارك الفكرية والسياسية .. ونستطيع أن نحدد ثلاثة مجالات أو ميادين لنضاله الفكرى والثقافى والسياسى طيلة حياته العملية الممتدة إلى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

الأول : هو الدعوة إلى تجديد الفهم والتفكير الدينى ورفض الجمود ، وبلغت ذروة هذه الدعوة بكتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٦ ، وكانت نتيجة هذه الدعوة اتهامه بالكفر والإلحاد ، وكاد يفصل من عمله ويحاكم وكان مهدداً بدخول السجن.

الثانى : رفض الاستبداد والتسلط السياسى ، وبدا ذلك واضحا فى موقفه من ديكتاتورية إسماعيل صدقى (باشا) وأدى إلى فصله من الجامعة . وقبل أزمته مع إسماعيل صدقى وبعدها كان ضد الاستبداد السياسى ، والواقع أنه كان ضد الاستبداد بكافة أشكاله .

الثالث : رفض الظلم والقهر الاجتماعى .. سواء ظلم المرأة أو ظلم الفقراء ، وذروة هذا الاتجاه لديه كتابه «المعذبون فى الأرض» الذى فشل فى نشره بمصر ونشره فى

بيروت ، ولم يفارقه هذا الموقف ، فحين صار وزيرا للمعارف العمومية دعا إلى مجانية التعليم ، وأطلق مقولته: التعليم حق لكل إنسان كالماء والهواء ، وتهكمت عليه بعض الصحف بأن أسمته وزير الماء والهواء .

لم يكن كتاب «فى الشعر الجاهلى» أول اصطدام لطه حسين بالفكر التقليدى والجمود الفقهى ، إذ بدأ الصدام قبل ذلك، وهو مجاور فى الأزهر ، ففى يوم كان يدرس مع صديق له كتاب «الكامل» ، ووصلوا إلى قول المبرد : «ومما كفرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره : إنما يطوفون برمة وأعواد» .. ويروى هو «أنكر صاحبنا أن يكون فى كلام الحجاج ما يكفى لتكفيره ، وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره ، ولكنه لم يكفر وسمع بعض الطلاب ذلك فأنكروه ثم تناقلوه» .

وصل الأمر إلى شيخ الجامع الأزهر الشيخ حسونة النواوى ومعه اعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء ، وكان الشيخ متجهما ، ودعا إليه عددا من المجاورين..الطلاب الآخرين.. تقدم أحدهم أمام الشيخ ونقل ما قاله عن كفر الحجاج ، وتبين أن هذا المجاور كان يحصى

عليه وعلى أصدقائه كل ما يقولونه ، خاصة تهكمهم وسخريتهم من الشيخ حسونة نفسه وكبار المشايخ وبالتأكيد كان هو وأصدقاؤه من المحسوبين على اسم الأستاذ الإمام محمدعبده، وقرر الشيخ أن يمحو اسمه وأسماءهم من الأزهر ، فخرجوا من عنده يلفهم الحزن ، فذهبوا إلى الشيخ المرصفى، شيخهم الذى يجلونه، ليستمعوا إلى درس الكامل ، فأنبأهم أن الشيخ الأكبر طلب إليه إلغاء درس الكامل اليوم واستدعاه إليه فى اليوم التالى ، خرجوا من عنده فذهبوا إلى الشيخ بخيت فى منزله وحكوا له الأمر كله ، كانوا متحمسين وثائرين ، فرد عليهم بهدوء وفتور : ولكنكم تدرسون الكامل للمبرد ، وقد كان المبرد من المعتزلة فدرس كتابه إثم ، فخرجوا من عنده غاضبين وناقمين ، فى اليوم التالى صدر قرار الشيخ الأكبر بمنع تدريس كتاب الكامل واستبداله بكتاب المغنى لابن هشام ونقل الشيخ المرصفى من الرواق العباسى إلى عمود فى داخل الأزهر .

سعى أصدقاؤه كل بطريقته لينهى المشكلة ، مشكلة فصلهم من الأزهر، أما هو كتب مقالا عنيفا ضد شيخ الجامع والعلماء والأزهر وقدمها إلى الجريدة للنشر ، لكن مديرها

لطفي السيد رفض نشرها ،كان حريصا عليه، فقد كان المقال حادا جدا.. وجادله طه مصرا على النشر، وسأله لطفي السيد، هل يريد أن يعود إلى الأزهر أم يهاجم الشيخ ، فقال له أريد أن أعود وأريد حريتي ، وطلب لطفى السيد منه أن يترك له الموضوع ليتحدث فيه مع الشيخ ، وتبين أن الشيخ النواوى لم يكن قد فصلهم ، ولا اتخذ أى إجراء ضدهم ، وأنه كان يلوح لهم بذلك فقط «أراد تخويفهم ليس غير» . لكن طه ضاق بالأزهر وحياته فيه..

وفى سنة ١٩٢٦ صدر كتابه «فى الشعر الجاهلى» وكان الكتاب فى الأصل محاضرات ألقاها على الطلاب قبل ذلك، وشكك به فى أصالة الشعر الجاهلى وقال إنه منتحل ، وقال آراء أغضبت المحافظين والتقليديين فى المجتمع ، واتهم بعدة اتهامات ، منها الكفر والالحاد ومنها أنه سرق هذه الآراء من المستشرقين ، خاصة «مرجليوث» ، وأنه يفتقد أصالة البحث والدراسة وأنه يدمر تراث الأمة ويشايع المستشرقين أعداء الإسلام .. وتقدم نائب فى البرلمان باستجواب يطلب فيه فصل طه حسين من الجامعة لأنه يقوم بتدريس هذه الآراء للطلاب ، واختلف النواب فى البرلمان ، خاصة أن النائب طلب أن تعيد

الحكومة النظر فى الدعم المالى الذى تقدمه للجامعة .. الجامعة من جانبها رأت أن تكتفي بسحب الكتاب من السوق وعدم توزيعه ، أى تصادره فعليا ، لكن النوب لم يكتفوا بذلك، كان رئيس الحكومة عدلي يكن فهدد بالاستقالة واستقالة حكومته إن أضير طه حسين ، وأمكن لسعد زغلول وكان رئيس مجلس النواب أن يحتوى الأمر ، وقال كلمات قاسية فى حق طه حسين أمكن له بها تهدئة النواب الغاضبين .. لكن لم يكتف الغاضبون بذلك ولم يرضهم أن يمر الموضوع دون معاقبة طه حسين ، فلجئوا إلى النائب العام وقام رئيس النيابة «محمد نور» بالتحقيق مع طه حسين ، وانتهى إلى انتفاء الشق الجنائى ، وأنه وإن أخطأ فى الكتاب فليس لديه نية الاساءة للإسلام ولا يقصد تجريح الدين .

انتهت الأزمة عند هذا الحد وقام طه حسين بإعادة النظر فى كتابه وأطلق عليه «فى الأدب الجاهلى» ولكن استمر الطعن على طه حسين فى هذه القضية إلى اليوم ، رغم أن د.عبدالرحمن بدوى أثبت أن القول بانتحال الشعر الجاهلى قديم ومطروح فى التراث العربى من ابن سلام وغيره (١) وأثبت د. عبد الرشيد المحمودى أن آراء المستشرقين فى انتحال الشعر الجاهلى كانت معروفة لطلاب الجامعة وأن

أحمد ضيف قام بتدريسها للطلاب قبل طه حسين (٢).

واستمر طه حسين داعيا إلى التجديد ، سبق أن تعرض د. منصور فهمي لمحنة مشابهة في الجامعة المصرية سنة ١٩١٢ ولم يتمكن من الافلات بعدها ، فقد انقلب كاتبا محافظا واتجه إلى التصوف التقليدى ، ولم يقدم انتاجا علميا يرقى إلى ما كان متوقعا منه وإلى إمكانياته وأدواته في البحث والدرس .. لكن وجدنا طه حسين يهب سنة ١٩٣٦ في وجه المحافظين مرة أخرى ، حين قاموا معترضين على عدم ارتداء طالبات الجامعة للحجاب ، ورغم أن الأمير عمر طوسون كان مناصرا للمحافظين فإن د. طه حسين شن هجوما حاداً على أولئك الذين يتدخلون في أمور الجامعة من خارجها .

وفى سنة ١٩٥٥ حين كتب الشيخ عبدالحميد بخيت ، وكان أستاذا للتاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر ، مقالا عن

---

(١)راجع د.عبدالرحمن بدوى: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي دار العلم للملايين ط٢، ١٩٨٦.

(٢) د. عبدالرشيد المحمودى: طه حسين بين السياج والمرايا ص٩٨ عين للدراسات والبحوث ٢٠٠٥.

الصيام ، يرى فيه أن الصيام إذا عطل المسلم عن العمل جاز له أن يفطر ، وقامت عليه الدنيا ، وغضب عليه شيخ الأزهر وقام بفصله من الجامعة ، وكان طه حسين خارج مصر ، فأرسل مقالين بعنوان «حق الخطأ» مدافعا عن د. بخيت ، استنادا إلى قول الله تعالى «وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما.» وتساءل د. طه بأى حق يستبيح مسلم لنفسه أن يكفر مسلما يشهد ألا إله إلا الله ومحمد رسول الله .. وتساءل مرة ثانية «كيف يرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بوادر هذا الشر العظيم ثم لا يكف عنه الشيوخ ..

على هذا النحو من رفض الجمود والدعوة إلى الاجتهاد والتجديد فى الفكر الدينى استمر طه حسين طيلة حياته ، ولا يجب أن ننسى أنه تخصص فى أبى العلاء المعرى وابن خلدون وكل منهما من دعاة الاجتهاد والتجديد فى مجاله بتراثنا العربى الإسلامى.

* * *

وقف طه حسين ضد الاستبداد السياسى ، وطغيان الحاكم الفرد ، ويبدو هذا الأمر جليا فى موقفه من حكومة إسماعيل صدقى فى مطلع الثلاثينيات .. لكن قبل موقفه هذا،

كان لديه موقف من طغيان الجماهير ونرى ذلك في تعامله مع سعد زغلول، لقد اعتبر أن كلاً منهما -سعد وصدقى- طاغية (١)، كان طغيان سعد من «الكاريزما» التى تمتع بها لدى الجماهير ولذا كتب «ظلموك يا سعد» وعبر عن تخوفه على الحرية فى مصر من شخصية سعد .. فالزعيم الذى يتمتع بجماهيرية ساحقة قد يصير إلى الطغيان ، وقد يستبد برأيه وبموقفه ، وهو رأى ذلك فى خلاف سعد وعدلى يكن .. وبينما كان مجايله عباس محمود العقاد مفتونا بسعد ، ووضع عنه كتابا موسوعيا بعنوان «سعد زغلول سيرة وتحية» ، وحين خرج العقاد من السجن بسبب إهانته للذات الملكية- الملك فؤاد - توجه من السجن مباشرة إلى قبر سعد ، أما طه حسين فكان لديه موقف آخر من سعد ، يكتب عنه سنة ١٩٢١ معتبرا أنه عدو الحرية يقول «كان سعد محاربا لأمته ، فأصبح الآن محاربا للحرية من حيث هى حرية . وأصبح الآن محاربا لكل هذا النصر الحديث .. سعد وكيل الأمة فى كل شىء . حتى فى قراءة الصحف ، أيتها الأمة المصرية . طيبى

---

(١) د. مصطفى عبد الغني: تحولات طه حسن. ص٤٢ الناشر هيئة الكتاب سنة ١٩٩٠

نفسا وقرى عينا . اهدئى واطمئنى فقد قيض الله رجلا يريحك من كل شيء . لا تطالبى بالاستقلال فهو يطلب به . لا تعشقى الحرية فهو يعشقها ، لا تؤمنى بالله فسعد يؤمن به . ولا تقرئى الصحف فسعد يقرؤها (١) ، ورغم ما فى كلماته من تهكم شديد ، لكن المعنى واضح ، هو يحذر من أن تذوب شخصية المواطن والمواطنين في زعيمهم ، وهى حالة عانت منها أمم كثيرة ، وليست الأمة المصرية وحدها ، وكانت هناك بشائر لمخاوف طه حسين ، وقتها ساد القول إن الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلى ، وقت الخلاف بين سعد زغلول وعدلي يكن ، وصار هناك فريق السعديين فى مقابل العدليين .. وبعد هذا الخلاف قيل لو رشح الوفد حجرا لانتخبناه .. كان طه يتمتع بحس سياسى رفيع وكان مخلصا لايمانه بالحرية .

أما علاقته وموقفه من إسماعيل صدقى وديكتاتوريته فله قصة أخرى ، فقد انتخب د. طه حسن عميدا لكلية الآداب سنة ١٩٣٠ وكان أول مصرى يشغل هذا الموقع ، واعتمد

---

(١)د. مصطفى عبد الغنى: مرجع سابق ص٤٢

مراد سيد أحمد وزير المعارف ذلك القرار ، جاء الانتخاب فى ظل حكومة صدقى ، وكان صدقى قد ألغى دستور سنة ١٩٢٣ ، وأسس حزبا خاصا به هو «حزب الشعب» وشرع فى تأسيس صحيفة لهذا الحزب تحمل اسمه .. كان إلغاء دستور ١٩٢٣ وممالأة القصر وانحياز صدقي باشا المطلق للملك فؤاد ، جعل الرأى العام ينصرف عنه وعن حزبه تماما .. كان صدقي ديكتاتورا .. مستبدا .. طاغية ومكروها من الشعب ، لم يكن طه حسين مستريحا لصدقى باشا الذى شغل موقع رئيس الوزارة ووزير الداخلية بالإضافة إلى المالية ، وتساءل «هل يفكر صدقى باشا إذن فى أن يحكم البلاد بسيف المعز وذهبه (١) .

فى اليوم الثانى لانتخابه عميدا زاره وزير المعارف وعرض عليه أن يتولى رئاسة تحرير الجريدة ، جريدة حزب الشعب، فاعتذر طه لأنه يريد أن يتفرغ للعمادة ، وللبحث العلمى ، فطلب منه أن يكتب المقال الافتتاحى بها وسوف يتولى آخرون عنه مسئولية التحرير، لكن رفض..ثم طلب إليه أن يكتب لها

(١) راجع فى ذلك د. أحمد زكريا الشلق : طه حسن جدل الفكر السياسة.. المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨ . ص٤٧

بعض المقالات فاعتذر بأنها «جريدة الحكومة» وهو موظف بالحكومة فلا يجب أن يقال إن الحكومة تستغل موظفيها للكتابة بصحيفتها ، المهم أنه أصر على رفضه في الابتعاد نهائيا عن تلك الجريدة ، لا بالكتابة ولا بتولى مسئولية تحريرية بها .

من يومها بدأت المضايقات لعميد الآداب ، فقد رفضت وزارة المعارف ترقية عميد العلوم وعميد الآداب ، لكنها قررت تعويض عميد العلوم (مستربنجهام) بزيادة راتبه وتجاهلت عميد الآداب ، ثم طلبت كلية الآداب تأسيس قسم الآثار بها ، ليدرس الطلاب الآثار المصرية ، فرفضت وزارة المعارف هذا المطلب ، الذى كان علميا فى المقام الأول ووطنيا أيضا ولم يكن يخص عميد الآداب .. لكنه التعنت البيروقراطى والدكتاتورية .

مضت الأيام ، وجاء عام ١٩٣٢ ، حيث طلب وزير المعارف من مدير الجامعة أن تمنح الجامعة درجة الدكتوراه الفخرية لعدد من السياسيين المصريين والأجانب ، وأن يقوم الملك فؤاد بهذا المنح فى احتفال ضخم يقام بالجامعة ، واللوائح تقتضى أن يقوم مجلس الجامعة بالترشيح ، وكان طلب وزير

المعارف أن تتولى كلية الآداب هذا الأمر ، وتحدث لطفى السيد مع طه حسين في الأمر ، والتزم طه بالقواعد القانونية وهى أن مجلس الجامعة يرشح بناء على ترشيحات مجلس الكلية ، ومجلس الكلية لم يرشح ولن يرشح أحدا من يريد الملك تكريمهم، وأصر د. طه حسين على موقفه حين طالع الأسماء المطلوب حصولها على الدكتوراه ، وكانوا جميعا من رجال الحكومة ومن أصدقاء رئيس الوزراء وبإزاء هذا الإصرار لجأت الحكومة إلى كلية الحقوق لتقوم بهذه المهمة ، وأقيم الاحتفال بالفعل في يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ ، ولم يهتف الطلاب ولا الأساتذة للملك فؤاد ، ولم يلق مدير الجامعة كلمة ترحيب بالملك كما جرت العادة وبعدها مباشرة نشر خبر فى المقطم يقول إن وزير المعارف «قرر نقل الاستاذ الدكتور طه حسين من كلية الآداب إلى وزارة المعارف العمومية في وظيفة مساعد مراقبة التعليم الأولى .. اتخذ الوزير هذا القرار دون الرجوع إلى مجلس الجامعة ، واحتج الأساتذة واعتبروا ماحدث اعتداء على استقلال الجامعة .. الأساتذة الفرنسيون بعثوا ببرقية شديدة اللهجة إلى الوزير وأتبعها الأساتذة المصريون والانجليز بإرسال برقية أخرى ، ودعا

الأساتذة إلى اجتماع عاجل لإعادة الاستاذ العميد .. وأضرب طلاب الاداب وحملوا عميدهم على اكتافهم وهتفوا باستقلال الجامعة ، وتواصل الاضراب وانضم طلاب العلوم إلى زملائهم طلاب الآداب ، وأرسلوا برقية احتجاج إلى الملك فؤاد، وتدخل البوليس لفض الاضراب والاعتصام ، وهاجمت الصحف المعارضة لصدقي القرار ودافعت عن طه حسين ، لكن الصحف المؤيدة لصدقي هاجمت طه حسين وأعادت التذكير بكتابه «في الشعر الجاهلي» وقامت الحكومة بتوظيف شيخ الأزهر الشيخ الظواهري في هذه الأزمة ، ليعلن أن طه حسين لا يصلح أن يكون مربياً .. وبإزاء هذه المعارضة الشديدة لقرار نقل طه حسين أقدمت الحكومة على خطوة أخطر ، إذ قررت إحالته إلى المعاش ، رغم أنه كان في الثالثة والأربعين من العمر ، وهكذا صار بلا عمل وبلا دخل .. فاتجه للكتابة بالصحف ، وصار رمزاً للحرية واستقلال الجامعة ، ورفض الاستبداد السياسي ، ولم يتحول عن موقفه هذا طيلة حياته (١).

* * *

(١) راجع التفاصيل كاملة لدي د. أحمد زكريا الشلق. مرجع سابق وراجع أيضا كتاب محمود عوض: أفكار منه الرصاص سلسة إقرأ. دار المعارف

شعر طه حسين منذ طفولته المبكرة بالظلم الإنسانى والاجتماعى ، حين أصيب بما أطلق عليها «آفة» أى فقد البصر وكانت معاملته فى بيته مختلفة عن إخوته ، كانوا يسخرون منه حينا ويشفقون عليه حينا ، ويعاملونه «كشىء» فى أوقات كثيرة ، وازداد هذا الإحساس عندما انتقل إلى القاهرة مجاورا بالأزهر ، فحين تقدم لامتحان الالتحاق بالأزهر ، قيل له مرتين من المشايخ «يا أعمى» ، دون مبالاة بمشاعره وإنسانيته ، وحين كان يقيم مع أخيه الأزهرى فى غرفة ، كان أصدقاء أخيه يأتون إليه فى الغرفة ، فيأكلون ويشربون الشاى ، دون أن يقدموا له كوبا اشتاق إليه ، ولا يجد فى نفسه الجرأة على أن يطلب كوبا من الشاى مثلهم ، لكن الفارق الحقيقى بين الفقر والثراء شعر به وأحسه ، حين راح يتردد على «الجريدة» ، كان من رواد الجريدة ومن المساهمين فيها أناس ينتمون إلى الارستقراطية المصرية والشرائح العليا من الطبقة الوسطى ، يقول فى أيامه «وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشىء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم ، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء . وكان وهو فقير متوسط الحال فى أسرته ، سيىء الحال جدا إذ أقام فى القاهرة فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه

الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين» .

ثنائية الأغنياء المترفين والفقراء البائسين لن تفارق وعيه أبدا .. وقد أدرك ذلك مبكراً ، منذ سنة ١٩٠٨ ، وقبل انتشار الفكر اليسارى أو قبل أن يصل إلى مصر ، لم تكن الثورة البلشفية قد قامت بعد ، وقد دفعه هذا الوعى إلى أن يعمل على تجاوز الوضع «سيىء الحال جدا» بالتعليم ، ومن يدقق فى كفاحه وإصراره على مواصلة التعليم بالجامعة ونيل البعثة ، رغم فقره الشديد وافتقاده للبصر يدرك كم كان طموحه وإصراره ،الذى وصل حد العناد الشديد .. وحتى بعد أن نال الدكتوراه وعاد إلى مصر وارتقى اجتماعيا، لم تفارقه الثنائية السابقة ، وكان مدركا لأبعادها فى المجتمع المصرى ، ولدينا وثيقة دالة هى كتابه «المعذبون فى الأرض» الذى أصدره سنة ١٩٤٧ ، وله قصة طريفة ومؤلمة .. فى نشره وما ترتب عليه .

أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها تفاقمت الأوضاع الاجتماعية فى مصر ، وازداد الاستقطاب الطبقى ، الفقراء يزدادون فقرا وأغنياء الحرب اتسعوا واتسع ثراءهم، وانتشر الحديث عن فساد بعض كبار السياسين فى صفقات القطن

وغيرها .. وظهرت التنظيمات اليسارية والماركسية التى تحدثت فى هذه القضايا بصوت مرتفع ، وكان بين طلاب الجامعة كثير من اليساريين ، وبينهم بعض تلاميذ طه حسين ، والمؤكد أن طه حسين لم يتجه إلى الفكر الماركسى ، وهو المؤمن بقيمة الحرية ، لكنه كان على وعى كاف بالمأساة الاجتماعية وقرر أن يعبر عن هذه المأساة بطريقة أدبية صرفة ، فكتب مجموعة من القصص القصيرة باسم «المعذبون فى الأرض» نشرها منجمة فى مجلة «الكاتب المصرى» التى أصدرها هو وترأس تحريرها .. وحين أراد أن ينشرها فى كتاب تم الاعتراض على النشر من الرقابة ، ولذا قام بنشرها فى بيروت .. كانت القصص تركز على معاناة الفقراء والاذلال الذى يتعرضون له ، وتجاهل الحكومات والدولة لهم ، ويركز أيضا على الثراء الشديد الذى يتمتع به بعض الأفراد .. ولم يكن ذلك الوعى وتناوله لهذه القضية منطلقا من أى خلفية ماركسية ، بل انطلق من خلفية إسلامية ، إذ سيتحدث فيها عن ثراء عبدالرحمن بن عوف ، وكيف كان يتبرع ويتنازل عن أجزاء كبيرة من ثروته وذات مرة تبرع بثروته كلها ، لم يترك شيئا منها لأهله، ويقدم رؤى إسلامية مستنيرة لقضية الثروة

والفقر والغنى ، ويتوقف مطولا عند أحاديث رسول الله ومواقفه في ذلك ، ويستشهد أيضا بعبارات ومواقف للسيد المسيح تدعم وجهة النظر تلك .. ولم يشر من بعيد ولا من قريب إلى الأفكار الحديثة حول هذه القضية ، أى الأفكار الاشتراكية بمختلف تياراتها ومدارسها.

يلفت النظر أنه فى تلك الفترة كتب فصول كتابه «الفتنة الكبرى» ويتحدث عن خروج أكابر المسلمين على عهد عثمان بن عفان من المدينة المنورة إلى العراق وبلاد الشام وحصولهم على أراض وتحقيق ثروات واسعة ساهمت فى إحداث الفتنة والتذمر فى المجتمع الإسلامى الوليد ، وهو التذمر الذى انتهى إلى مقتل الخليفة الثالث .. ذى النورين عثمان بن عفان.

وأن تنشر قصة قصيرة فى مجلة تتناول أوضاع الفقراء والبؤس الذى يعانونه أمر يسير ويمكن تفهمه ، أما أن تكون مجموعة قصصية متكاملة وأن يكون إهداؤها هكذا: «إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل .. وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل .. أى الفقراء المصريين والأثرياء المترفين ، ويهديها أيضا إلى الذين يجدون ما لاينفقون وإلى الذين لا يجدون ما

ينفقون .. الرسالة هنا واضحة تماماً .. والمؤكد أن الملك فاروق فى تلك الفترة كان مصابا بما يمكن تسميته فوبيا الشيوعية ، وكان لديه هاجس أن الشيوعيين سوف يستولون على مصر ومنها على بلاد المنطقة ، وإن الاتحاد السوفييتى يحاول ويسعى للوصول إلى مصر وإلى البلاد العربية ، وتحركت أجهزة الدولة وفق مخاوف جلالة الملك .. وهكذا تم التعامل مع مجموعة «المعذبون فى الأرض» ، خاصة وأن مجلة الكاتب المصرى التى نشرت بها القصص ، تناولت فى أحد أعدادها «القصة فى الاتحاد السوفييتى» واهتمت بنشر ترجمات لقصص قصيرة وابداعات لكتاب روس مثل مكسيم جوركى وإيڤان تور جنيف فضلا عن د. ستوفيسكى ، ومن ثم كان من السهل على الرقباء وكتبة التقارير أن يصنفوا المجموعة وكاتبها فى هذا الاتجاه ، ولم يكن غريبا أن ترفض الرقابة نشر المجموعة ، وإذا أدركنا حجم كاتبها وقامته ليس فى مصر وحدها ، بل فى العالم العربى وعلى المستوى الإنسانى كله فإن قرار عدم النشر لابد وأن يكون تم الرجوع فيه إلى أعلى المستويات بالدولة وربما الديوان الملكى ذاته .

سوف نجد أصداء ذلك الموقف من طه حسين سنة ١٩٥٠ ،

وتحديدا فى شهر يناير .. فقد أجريت انتخابات مجلس النواب وفاجأ حزب الوفد الجميع بالفوز بأغلبية ساحقة . وعادت المياه إلى مجاريها بين الملك فاروق والديوان الملكى من جانب وحزب الوفد والزعيم مصطفى النحاس من الجانب الآخر، وكانت العلاقات قد تأزمت إثر قبول النحاس باشا لتشكيل الحكومة يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ، ثم إطاحة الملك بالوزارة سنة ١٩٤٤ ، وظل الوفد مبعدا تماما لمدة ست سنوات ، وكان الوفد يحتاج أن يعود ، وقدم الحزب العريق التطمينات اللازمة للملك .. المهم أن الملك كلف النحاس باشا بتشكيل الحكومة فى يناير سنة ١٩٥٠ ولظروف شرحها «صلاح الشاهد» فى مذكراته قرر النحاس اختيار د. طه حسين وزيرا للمعارف العمومية .. وما أن أعلن ذلك حتى وصلت تقارير إلى الديوان الملكى وإلى الملك فاروق مباشرة من القلم السياسى تحذر من طه حسين وتصفه بأنه «شيوعى» وأبدى الديوان اعتراضا عليه ، لكن الموضوع «كبر» عند النحاس وأصر .. وجدها النحاس فرصة لحكومته أن يقدم اسما يحظى باحترام بالغ بين المصريين ، طه حسين عندهم قصة كفاح حقيقية .. ذلك الشاب الكفيف .. الفقير

جدا .. القادم من أعماق الصعيد ليتم تعليمه الجامعى ويسافر فى بعثة إلى فرنسا ويعود حاملا الدكتوراه ، ويتصدى لديكتاتورية صدقى باشا وتملأ مقالاته الصحف ويستمتع القراء بها وبكتبه الأخرى ، وكانت الإذاعة المصرية تذيع له بعض أحاديث بصوته الرخيم، مما أتاح له أن يكون معروفا على نطاق واسع بين عموم المواطنين. فأصر النحاس على اسم د. طه حسن وزيراً للمعارف، ووجد الملك فاروق أن هذا الموضوع لا يستحق أن يثير أزمة بسببه مع زعيم الوفد في بداية تسلم الحكومة ، خاصة أن وزارة المعارف العمومية لم تكن من الوزارات المهمة عند الملك ولا يحفل بها ولا تتماشى مع اختصاصاته أو رغباته، هى ليست وزارة الخارجية حيث يختار بنفسه بعض السفراء ويكلفهم بمهام مباشرة منه شخصيا، وهى ليست وزارة الحربية حيث الجيش الذى يحمى العرش ويجب أن يكون تحت سيطرته التامة، ومن يتولاه يكون مأمونا تماما بالنسبة له ، وليس هناك احتمال شك واحد حوله .. هى كذلك ليست وزارة الأوقاف التى قد يحتاج إلى بعض أراض منها أو أموال بأى صورة من الصور وقد كان هناك احتكاك بين حين وآخر بين الأوقاف

والخاصة الملكية ، وهى أخيرا ليست وزارة الزراعة التى يمكن أن تولى اهتماما نحو أطيانه ومزارعه هو ومن يريد .. كانت المعارف العمومية بالنسبة له وزارة عادية ، لذ اكتفى - فقط - بتنبيه النحاس إلى ما ورده بخصوص د. طه حسين وما يقال عن شيوعيته فى أروقة الديوان الملكى .

وكان لدى طه حسين مشروعه الخاص فى وزارة المعارف، هو لم يكن بعيدا عنها ، وجعل وجوده فى المنصب لرفع الظلم الاجتماعى عن الفقراء ، بأن سعى إلى استصدار مرسوم ملكى بمجانية التعليم ، وقال مقولته التى لاتزال تتردد فى أسماع الأجيال « التعليم حق كالماء والهواء» وتهكمت عليه بعض الصحف وأسمته «وزير الماء والهواء» ولم يغضب من تلك التسمية ، بل سعد بها ، وبعد أن كان نيل المجانية «عار» ووصمة فقر كما يقول إبراهيم عبد القادر المازنى فى قصة حياته ، جعل طه حسين من المجانية حقا للجميع ، وفى مقدمتهم الفقراء .. وسوف نجده وهو فى الوزارة يعمل على مكافحة الأمية ويصدر العديد من القرارات بهذا المعنى ، ويجعلها سياسة للوزارة ، ويتابع فى المديريات «المحافظات» الجهد والعمل على محو أمية من فاتهم حق التعليم .. ويجرى

العمل وهو فى الوزارة على تأسيس جامعة بمدينة المنصورة ، ويلتقى أعيان المنصورة الذين جمعوا مبلغا من المال يريدون به تأسيس كلية للطب بمدينتهم ، وكان المبلغ حوالى ٨٠ ألف جنيه ، فيناشدهم أن يزيدوه إلى مائة ألف كى يتمكن من البدء ، ولتكن الكلية نواة لجامعة كبرى . ولا ننسى أنه قبل ذلك ومنذ فترة بعيدة - أكثر من عقدين- عمل مع لطفى السيد على إدخال الفتيات الجامعة المصرية ، وأن يكون للفتاة حق التعليم العالى، بعد أن كان ذلك الحق وفقا على الذكور حين تأسست الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨

ونعرف أن طه حسين تمكن وهو وزير (شغل الموقع لمدة عامين) من الوصول بمجانية التعليم حتى شهادة الثانوية العامة، بعد أن كان التعليم الثانوى بمصاريف تفوق آنذاك قدرة معظم المصريين، وهو بالتأكيد كان يتطلع إلى أن تمتد المجانية إلى التعليم الجامعى، وكان يدرك من خلال تجربة الجامعة المصرية، ثم تجربة جامعة الإسكندرية وجامعة عين شمس، وكان هو الذى أسس جامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٢، باسم جامعة فاروق، وافتتحت جامعة عين شمس (جامعة إبراهيم) في عهده الوزارى، كان يعرف أن التعليم الجامعى

مكلف وأن ميزانية الحكومة لا تسمح به .. وصحيح أيضا أنه تعلم فى الجامعة بالمصاريف، لكنه كان يستوعب تجربة الأزهر، حيث التعليم مجانى ويتقاضى المجاور ما يعرف بالجراية أى أرغفة من الخبز يتناولها ، وكان الإنفاق على الأزهر من الأوقاف، لذا كان يناشد الأثرياء والأعيان المساهمة في التعليم - وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢، وقد أيدها وساندها، بل هو الذى خلع عليها لقب ثورة ، فى البداية كانت تسمى انقلابا ثم تعدلت التسمية إلي «حركة» لكنه منذ نهاية ١٩٥٢ كان ينادى بأن ما جرى ثورة .. وساند الثورة فى خطواتها الأساسية ، فى صراع عبدالناصر مع الإخوان سنة ١٩٥٤، ندد بالإخوان ودافع عن عبدالناصر، ساند قبلها إعلان الجمهورية وإلغاء الملكية ، وكان ضمن لجنة وضع الدستور الدائم والتى تشكلت بعد إلغاء دستور ١٩٢٣، ودافع عن مصر حين تم تأميم قناة السويس ولما شنت فرنسا العدوان الثلاثى على مصر، ذهب إلى السفارة الفرنسية بالقاهرة ورد إليهم وساما فرنسيا كان قد ناله من قبل، لأنه لا يستطيع أن يحمل وساما من جمهورية تشن الحرب على الجمهورية المصرية - وطنه - وكان لموقفه هذا رد فعل مؤثر

لدى الرأى العام الفرنسى والمثقفين الفرنسيين، والحقيقة أنه كان يأمل الكثير من ثورة يوليو للتعليم وللفقراء فى مصر وللعلم وللثقافة عموما، فيكتب فى الأهرام - عدد ٢٧ ديسمبر ١٩٥٢ - مطالبا بتعميم التعليم الجامعى «وإنى لأرجو ملحا فى الرجاء أن تتخذ الثورة بشأن الجامعات خطوة كالتى اتخذتها بشأن التعليم العام، فتهيئ لإنشاء جامعة أو جامعتين أو ثلاث فى وقت ملائم، ذلك أجدر أن يحقق لجامعاتنا ما تتحرق إليه من الإصلاح..»

وكان مدركا للفوارق بين الأغنياء والفقراء، وحين شرعت الثورة فى إجراء بعض الاصلاحات الاجتماعية وراحت تبحث عن الاستثمار الأجنبى يتساءل هو وأين أغنياء مصر .. ؟ يكتب - الأهرام ٧ فبراير ١٩٥٣ - «إنى أقرأ أننا فى حاجة إلى تشجيع الأجانب على أن يستثمروا رءوس أموالهم فى مصر، وهذا خير ما فى ذلك شك، ولكن أموال المصريين لم لا تستثمر فى مصر ! وأين تستثمر إذن ؟ أليس غريبا أن الثورة تدعو إلى الإصلاح منذ ستة أشهر وأنها لم تدع الشعب إلى أن يساهم فى قرض واحد لتحقيق مشروع واحد من مشروعات الإصلاح ، ثم يقول : «إحدى اثنتين إما أن يكون

في مصر مال ففيم ينفق هذا المال، إذا لم ينفق في إصلاح مصر إذاً. و إما ألا يكون في مصر مال وإذن فمن أين يأتى هذا المال الذى ينفق فى ألوان من الترف السخيف الذى لا يغنى؟»

وعندما اهتمت الثورة بإصلاح حال الفلاح وإصدار قانون الاصلاح الزراعي سعد به وقال إنها أرادت أن «تلغى الفروق بين الطبقات وتعرف نفوس المواطنين جميعا أنهم إخوة ليس فيها سيد ولا مسود وأن ثروة مصر لم تخلق ليستأثر بها فريق دون فريق، وإنما خلقت لينعم بها المواطنون جميعا كل على قدر بلائه وكفايته وجده فى العمل دون أن يكون فى ذلك بغى أو سرف أو طغيان (١)».

كان رجال ثورة يوليو ٥٢ يعرفون قدر د. طه حسين ودوره التاريخي ، والأهم من ذلك أنه كان يعرف هو نفسه دوره وقدره، ولذا حين بدأت بعض الأقلام تهيل التراب على كل ما تحقق قبل ١٩٥٢، وقف يدافع بصلابة عن أن هناك أموراً إيجابية قد تحققت ، خاصة في التعليم، ويجب البناء عليها واستكمالها، وقد هوجم من البعض وتعرض للدس كثيرا،

---

(١) جريدة الجمهورية عدد ٦ أغسطس ١٩٥٤ .

حتى أن هناك من طالب بمحاكمته فى محاكم الثورة، ولم يعبأ بذلك - لكنه فوجئ سنة ١٩٥٧ بما لم يتوقعه أبدا .. فقد اجتمعت لجنة التعليم بمجلس الأمة (مجلس الشعب حاليا) وراحت اللجنة تدرس وتناقش إلغاء مجانية التعليم، حتى تلك الفترة لم تكن المجانية قد تحققت بالنسبة لطلاب الجامعات وكان هو من المطالبين بها والساعين إليها، لكن اللجنة البرلمانية تعيده وتعيد مصر إلى نقطة الصفر، حين تطالب بإلغاء المجانية فى المدارس، خاصة الثانوية، ولسبب شديد السفه، وهو أن المجانية تحققت قبل ١٩٥٢، فى زمن العهد البائد، وكان ذلك يعنى هجوما ضمنيا على طه حسين ، الذى يذكر له تاريخيا هذا الفضل، وكان ذلك يعنى التراجع عن حقوق اكتسبها المصريون وإنجاز تحقق لهم ونالوه، وأن الثورة قد أقرت ذلك الحق فى الدستور، بينما لم يكن مثبتا فى دستور سنة ١٩٢٣، وراح يهاجم اللجنة وأعضاءها بضراوة، منددا بهم فى مقال بجريدة الجمهورية «فما بال اللجنة تسأل عن إمكانية هذا الإلغاء، دون خروج على نصوص الدستور القائم، وتريد أن تعيد المصروفات فى بعض هذا التعليم أو فيه كله ؟ وتريد أن تعود مصر إلى بيع التعليم

العام بالثمن القليل أو الكثير، يشتريه منهم القادرون على شرائه ويدعه العاجزون منا، وأنا أعلم أن وزيرا سابقا من وزراء التربية والتعليم كان يرى أن يحال كاتب هذا الحديث إلى محكمة الثورة، لأنه أقر مجانية التعليم العام، فأثار مشكلات لا تنقضى وعرضى التعليم لخطر عظيم» .

دافع طه حسين عن المجانية وتصدى لتلك اللجنة وما تنادى به، وكان هناك تيار - وقتها - يحذر من مجانية التعليم ويراها سببا في انهيار التعليم كله، لكن جاء العام التالى مباشرة سنة ١٩٥٨ ليتخذ الرئيس جمال عبدالناصر قرارا بمجانية التعليم الجامعى .

لم تتوقف القضايا الكبرى فى مسيرة طه حسين، وواصل على هذا النحو حتى رحيله عن عالمنا يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣.

وبعد وفاته أثيرت هذه القضايا والمعارك من جديد، وكان على طه حسين أن يخوض هذه المعارك «ميتا» ، وأثيرت معارك جديدة مؤلمة، وأهمها موقفه من الصهيونية والقضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى، وما أثير حوله كان أشبه بالانتقام والثأر بأكثر منه نقاش لقضايا حيوية، وذلك موضوع الفصول القادمة .

المصادر والمراجع

- د. طه حسين : الأيام ج٢ ، ج٣
- المعذبون في الأرض الناشر دار المعارف
- في الشعر الجاهلي تقديم د. عبدالمنعم تليمة الناشر: رؤية للنشر سنة ٢٠٠٧
- في الأدب الجاهلي دار المعارف
- الفتنة الكبرى ج دار المعارف
- أعداد مجلة الكاتب المصري ، ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨
- د. أحمد زكريا الشلق : طه حسين جدل الفكر والسياسة - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧.
- د. ثروت عكاشة : مذكراتى في الثقافة والسياسة ج١ - دار الهلال.
- د. عبدالرشيد صادق المحمودى : طه حسين بين السياج والمرايا ، عين للدراسات والنشر ٢٠٠٥.
- د. مصطفي عبدالغني : تحولات طه حسين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠.

الباب الثانى :

الصهيونية وفلسطين عند طه حسن

الفصل الثالث:

كتابة ولا قراءة

بين النقاد والكتاب ، لم يتعرض كاتب لهجوم جارح واتهامات حادة مثل تلك التى تعرض لها د. طه حسين ، عميد الأدب العربي، وفى العادة عندنا يفرض الموت حرمة للميت ، فما ان ينتقل كاتب إلى العالم الآخر ، حتى تتوقف العداءات له ، ويصمت خصومه ، ليس فقط عملاً بنظرية اذكروا محاسن موتاكم ، لكن لأن الموت كفيل بانهاء الكثير من الخصومات والنزاعات، حدث ذلك - مثلاً - مع الشيخ محمد عبده، فقد بلغت خصومة بعض علماء الأزهر له حد اتهامه فى عقيدته ورميه بالكفر، ووصل الخلاف السياسى معه إلى عزله من دار الافتاء قبل وفاته مباشرة ، وما إن انتقل إلى رحمة الله، حتى تناسى الجميع ذلك، وبقى فى الذهن العام، الأستاذ الإمام الفقيه المجدد والمجتهد ، لكن الأمر اختلف بالنسبة لطه حسين، فبعد وفاته، اشتد الهجوم عليه واتسع وتم إحياء معارك كان قد مضى عليها قرابة نصف قرن على وفاته مثل معركة كتابه «فى الشعر الجاهلى» وتم تجديد كافة

الخصومات والمعارك معه، والأكثر من ذلك أن بعض الذين بالغوا في مدحه والثناء عليه في حياته انقلبوا إلى النقيض تماما ، ولنتأمل حالة الكاتب أنور الجندى، فقد خص د. طه حسين في كتابه «أضواء على حياة الأدباء المعاصرين بثناء ومدح شديدين ، صدر الكتاب سنة ١٩٥٧ وكان من أبرز المشاركين في العدد التذكارى من مجلة الهلال ، عن طه حسين ، سنة ١٩٦٦ ، وكان العدد احتفاء بـ طه حسين وتقديرا له ، وما إن توفى طه حسين حتى انبرى الجندى فى كتاب حمل عنوانه «طه حسين .. حياته وفكره فى ميزان الإسلام ، ليتهم الرجل في عقيدته الدينية وفى وطنيته وفى ضميره الانسانى واخلاقه، بل وفى رجولته .. هل كان مغيبا فى حياته وأفاق بعد وفاته .. ترى هل كان الجندى منافقا فى حياته .. أم كان مدفوعاً دفعا للهجوم عليه بعد وفاته مع صعود التيارات الأصولية المدعومة فى منتصف السبعينيات بالنفوذ السياسى لعدد من دول المنطقة والممولة بالبترو دولار؟!

ومع شدة الإلحاح والهجوم المتواصل اخذت الاتهامات الموجهة إلى طه حسين طابع الحقائق المطلقة لدى كثير ممن

لم يتح لهم قراءته ، حتى أن المفكر الجزائرى- الفرنسى محمد أركون تساءل في ندوة له بمعرض القاهرة الدولي للكتاب سنة ٢٠٠٧ .. ماذا فعلتم بالمرحوم ..؟ ماذا فعلتم بطه حسين ؟!

جمع أعداء طه حسين وخصومه كل ما يمكن من اتهامات ودفعوها نحوه .. رغم أن الجمع بينها ينطوى على تناقض شديد .. بل من المستحيل أن يجمع إنسان واحد بينها .. هو - عندهم - من دعاة الفرعونية وهو من الكارهين تماما للعرب وللعروبة ، وهو من المطالبين بالاندماج فى الغرب وأخذ كل شيء عن أوربا ، وإهمال تراثنا كله ، وهو كذلك مساند للاستعمار ومدافع عنه ، لم يكتب كلمة واحدة ضد الاستعمارفى البلاد العربية ، وهو كذلك شيوعي ويسارى وبعد ذلك هو مناصر لليهود .. عميل للصهيونية ، يكره فلسطين بشدة ، لم يكتب فى حياته كلمة فلسطين ، من قريب ولا من بعيد ، ولم تفرغ الاتهامات بعد ، فمازال لديهم الكثير .. فـ طه حسين يعتدى على الأصول الاسلامية ويعمل على هدم القرآن الكريم وينفذ أفكار الاستشراق والمستشرقين فى الثقافة الاسلامية ، بل فى الاسلام نفسه وهو ليس مسلما ،

فقد تنصر وتم تعميده في إحدى الكنائس بفرنسا أثناء بعثته في مقتبل حياته.

ينسي كثيرون أن طه حسين هو ابن الكتاب في عزبة الكيلو بالمنيا ، نهاية القرن التاسع عشر ، وهو أزهرى» قبل أن يلتحق بالجامعة المصرية ، وكل ما أخذ عليه عدة جمل ، أو فقرة في كتابه «في الشعر الجاهلى» .. والتي جاء فيها «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى» وقامت الدنيا عليه سنة ١٩٢٦ ، هاج الشيوخ وبعض أعضاء البرلمان وهاجمته الصحف، وأحيل الكتاب والكاتب إلى النيابة العامة ، وانتهى وكيل النائب العمومى «محمد بك نور» إلي حفظ التحقيق ، لانتفاء القصد الجنائي، وانتهى الأمر عند هذا الحد . ومع ذلك قام د. طه حسين بإعادة النظر في كتابه وغير عنوانه ليصبح «فى الأدب الجاهلى» وأعاد كتابته ، وحذف الجمل والفقرات التى أغضبت الرأى العام ورأى فيها بعض رجال الدين مساسا بالقرآن الكريم وبالدين الإسلامى ، وكان ينبغى أن يحسب ذلك له ، وما قام به من تغيير يؤكد معنى أهم، هو

أن قصد الاساءة للاسلام أو لمشاعر المسلمين - ليس وارداً لديه ، ولا يريده ، وحتى إن كان قد أخطأ فقد راجع نفسه، والرجوع إلى الحق فضيلة .. لكن خصوم طه حسين ، ربما بسوء نية أو بكسل عقلى ، توقفوا تماما عند لحظة اتهامه سنة ١٩٢٦ ، ولم يبرجوها حتى هذه اللحظة.

ونعرف جميعاً - أن د. طه حسين عاش حياته أمينا ومدافعا عن اللغة العربية ، فقد كان رئيسا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة حتى وفاته سنة ١٩٧٣ ، وكان رئيسا لاتحاد المجامع العربية ، وهو الذى خاطب د. يوسف إدريس فى بداية تألق الأخير بضرورة الرفق باللغة الفصحى وعدم التوسع فى العامية وهو الذى نبه إلى خطورة العاميات على اللغة العربية ، ساعتها لن يتمكن المواطن فى مراكش من فهم المواطن فى مصر .. وطه حسين هو الذى دافع عن العربية حين طالب صديقه عبد العزيز فهمى وآخرون غيره بأن تكتب العربية بالحروف اللاتينية ، كما فعل أتاتوك مع اللغة التركية.

وطه حسين هو صاحب الكتابات الاسلامية المتعمقة والرصينة والتى تعد إضافة للباحثين فى التاريخ والفكر الاسلامى ، خاصة كتابه «الفتنة الكبرى» بجزئيه أو كتابه

«الوعد الحق» و «الشيخان» وينسى كثيرون أن مشروع أحمد أمين فجر الإسلام وضحى الإسلام كان جزءا من مشروع كبير اتفق عليه أحمد أمين وطه حسين و د. العبادى على كتابة تاريخ الإسلام من كافة جوانبه ، ولذا فإن الطبعة الأولى من كتاب «فجر الإسلام» صدرت بمقدمة ضافية كتبها د. طه حسين.

وحين كان طه حسين يعد للدكتوراه فى فرنسا اختار ابن خلدون ومقدمته موضوعا لدراسته ، وكان دافعه لذلك أن ابن خلدون مفكر «لا يعرفه جيدا سوى المستشرقين مع أنه خليق بمعرفة العلماء الذين يعنون اليوم بمباحث لاحظ هو أهميتها وفائدتها (١)

أى أنه يريد أن يخرج ابن خلدون والاهتمام به من دائرة المستشرقين ، إلى الدائرة الأوسع من العلماء والباحثين فى علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وتكشف صفحات رسالته التى كتبها بالفرنسية سنة ١٩١٧ عن اعتزاز صادق بالعروبة

---

(١) د. طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .. تحليل ونقد . ترجمة محمد عبد الله عثمان ، طـ ٢ دار الكتب والوثائق القومية سنة ٢٠٠٦ ، صفحة ١٦٥.

ودفـاع عن العـرب، فـضـلا عن اعـتـزاز خـاص بابن خلدون ، يقـول عنه «إليـه يرجـع الفـضل فى أن الآداب العربيـة تسـتطيع أن تفخـر بأنها كانت الأولى فـى وضـع الفلسفة الاجتماعية فى قالب علمي . ومن السخف أن نتمسك ببوادر ضعف إنسانية جداً لنتوصل بذلك إلى أن ننتقص من فضل شـخصـية لا ريب في عظمتها (١).

ولعله هنا يشـيـر إلى مـواقف ابن خلدون المتـذبذبة من الحكام ، خـاصـة موقفه فى الشـام من تيمور لنك ، الذى غزا بلاد الشـام واسـتبـاح دمشـق ، وأنحاز إليه ابن خلدون على النحو الذى كشفه ابن خلدون نفسـه فى سيرته أو رحلته التى كتبها عن حياته.

وينتقد طه حسين بشدة هجوم ابن خلدون فى مقدمته على العرب، خـاصـة فكرته التـى طرحها بأن العرب لا يتغلبون على بلد إلا حل به الخـراب المطلق، وكـأنـهم أعـداء الحـضـارة والعمران ، ويرى طه أن ابن خلدون لم يدقق جيدا فى حكمه ولا فى كلمتـه ، فقد اسـتند على واقـعة مـحددة وهى تـخريب

(١) المرجع السابق . ص٢٦.

شمال افريقيا فى القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن ذلك لأن طبيعة العرب التخريب ، بل كان تنفيذاً لأمر أصدره الخليفة الفاطمى فى مصر ، وكان قد رغب فى الانتقام من أسرة بربرية ، انقلبت عليه أى أنها عملية ثأر وانتقام ، خاص بالحاكم ، وإن كان ابن خلدون استند على هذه الواقعة ، فقد تجاهل وقائع أخرى مضادة ، وتنفي عن العرب سمة التخريب والفوضى ، يقول طه حسين «ومن الغريب أن ينسى ابن خلدون أن فتوحات العرب فى فارس والشام وأسبانيا بل افريقية لم تؤد إلى خراب هذه البلاد ، ولو كان عادلاً لفحص الأوامر التى أصدرها الخلفاء إلى الجيوش الغافرة وهى أوامر تقضى بمعاملة المغلوبين أحسن معاملة وأكرمها، وكان حقا عليه ألا ينسى المعاهدة التى عقدها الخليفة عمر بنفسه مع أهل بيت المقدس» (١).

ويواصل طه حسين الدفاع عن العرب، وينتقد حكم ابن خلدون بأن العرب يجهلون ما أسماه سياسة الملك »، لأنه لم يحدد ماذا يقصد تحديداً بالمصطلح وماذا تعنى سياسة الملك

---

(١) المرجع السابق . ص١٠٢

. ومع ذلك يرد عليه بقول قاطع «من المحقق أن العرب من بين جميع الأمم التى قبضت على ناصية الحكم فى الدولة الإسلامية فى العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولى حكمها وأمهر من عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلى والمادى (١).

والواضح أن نموذج الحكم التركى أو الدولة العثمانية كان شاخصا فى ذهنه وهو يملى هذا القول «ليس لنا إلا أن نقارن النتائج التى ترتبت على حكم الترك والعرب فى بلاد المشرق حتى نقرر أن العرب ما فعلوا سوى أن شادوا أو عمروا ، وأن الترك ما فعلوا سوى أن أبادوا وخربوا (٢).

ويرفض طه حسين مقولة ابن خلدون وغيره من بعض الكتاب العرب ، فضلا عن عدد غير قليل من المستشرقين من أن معظم العلماء فى الحضارة الاسلامية ينتمون إلى العنصر الفارسى ، ورأيه فى ذلك أنه «من الصعب بسبب الاختلاط الجنسى الناشئ عن فكرة الموالاة تحديد الأصل الجنسى

(١) د. طه حسن: المرجع السابق ص١٠٣

(٢) نفس الصفحة

للعلماء والفلاسفة المسلمين .

على هذا النحو كانت رسالته بالفرنسية للدكتوراه ، والتى تحدث فى مقدمتها عن رسالة الغفران للمعرى وصداها الواسع فى الكوميديا الإلهية لدانتى ، وهو ما أكدت عليه الدراسات العلمية ، وعلم الأدب المقارن فيما بعد ، وقد وجه فى الرسالة انتقادا شديدا للمستشرقين ، خاصة الفرنسيين منهم ؛ لأنهم فى دراساتهم «يعنون كثيرا باللغة ويستمسكون باللفظ دون المعنى ، وأنهم حين يرجعون إلى المصادر والأصول العربية يعتمدون على ترجمات لها قد لا تكون دقيقة فى حالات عديدة ، كما حدث بالنسبة لمعركة ابن خلدون وترجمتها الفرنسية التى قام بها «دى سلامنه».

والرسالة التى قدمها وأملاها فى فرنسا ، مع زوجته الشابة ، سنة ١٩١٧ ، مليئة بالتمجيد لما أسماه «العبقرية العربية» والدور الذى لعبته تلك العبقرية وما قام به «العرب الخلص» فى اذدهار الحضارة الاسلامية.

وبعد ذلك كله يردد «المثقفون بالسماع ، ويكتبون بثقة زائدة وضمير مستريح أن طه حسين كان «تابعا» للمستشرقين يرد آراءهم وكأنه طبل أجوف ، وأنه فعل ذلك

كى يمنحوه الدكتوراه ، وأنه عاش حياته كارها للعرب .. رافضا لهم ومعاديا ، ولو التزم هؤلاء بابسط القواعد العلمية لذهبوا إلى كتاباته يدرسونها ويفحصونها ثم يوجهون له ما شاءوا من النقد.

لم يقف الهجوم عند آراء وأفكار طه حسين، أو ما تصور خصومه أنها أفكاره وآراء قال بها وعبر عنها ، لكنهم امتدوا إلى حياته الخاصة ، وأمور تتعلق بحياته الشخصية ، وفى أعماقهم استنكروا أو لم يستوعبوا أن فتاة فرنسية توافق على الزواج بمصرى ، وأن يكون ذلك المصرى شاباً فقيراً .. مكفوف البصر ، وفى ذلك الزمان، كان هذا الأمر حدثاً جللاً ، لذا راحوا يتصورون أن هناك هدف خبيث وراء تلك الزيجة ، وأن تلك الفتاة ، قبلت هذه التضحية الضخمة وذلك التنازل لغرض آخر وهو تدمير الثقافة الإسلامية ، بل الإسلام ذاته من داخله ، يقطر هذا المعنى وذلك التصور من كتاباتهم ومواقفهم ، لذا راحوا يترصدون الرجل فى حياته الخاصة وأموره الشخصية ، بل وأسلوب التعامل بين الزوجين داخل البيت ، وبدأ بعضهم يتكلم عن أنها مسيحية وظلت على دينها، وأنها ظلت تتكلم الفرنسية ولم تتكلم العربية ، والذى

نعرفه أن الاسلام لم يحرم ولا يحول دون أن يتزوج مسلم بمسيحية أو يهودية ، ولا يلزم الاسلام زوجة المسلم أن تعتنق دين زوجها ، ولا يطالب الزوج أن يفرض على زوجته أن تعتنق الاسلام إن كانت غير مسلمة ، ولا يعد ذلك نقيصة ولا مأخذا على الزوج ، ولا هو عيب تعاب به الزوجة غير المسلمة، فالقرآن الكريم علمنا معنى الحرية الدينية والاعتقاد لكن لكن طه حسين ناله لوم عنيف ، لقد حكت زوجته سوزان فى كتابها «معك» مدى المعاناة التى تعرضا لها ، بسبب هذا الموضوع ، فقد دعي إلى لقاء مع عدد من المشايخ بعد عودته من فرنسا ، للنقاش فى مسألة علمية وكانت هى ترافقه ثم تجلس في انتظاره ليعودا معاً ، وحول الشيوخ الجلسة إلى نقاش ومحاكمة للزواج المختلط أى زواج المسلم بغير المسلمة وزواج المصرى بغير مصرية ، وتحديداً الأوروبية ، وخرج متألما وحزينا ، وحاولت هى أن تهون عليه الأمر ، وما قام به هؤلاء نوع من الاعتداء على حريته وتدخل فى حياته الخاصة ، وهو تدخل أو تطفل لا يجيزه الدين ولا يقره الخلق القويم ، وما قاموا به فى حدوده الدنيا نوع من عدم اللياقة وسوء الأدب ، أو هو نوع من «الملاسنة» و «رمى الكلام» كما يحدث

في الحوارى بين ربات البيوت أحيانا.

وإذا كان هناك إصرار على اعتبار زواج طه حسين من سوزان مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين، ألا يحق للطرف الاخر، أى أهل سوزان وأبناء مجتمعها أن يقولوا الشئ نفسه،أن زواج المسلم الأزهرى الأصل من هذه الفتاة اختراق للمجتمع الفرنسى وللمسيحية ؟!!.. ألم يكن من حقهم ذلك القول حين وقفت هى إلى جوار زوجها ضد فرنسا فى عدوانها الثلاثى على مصر؟

وبالمنطق نفسه ألايمكننا القول إنه كسب صديقة للثقافة العربية والإسلامية.

لم يقف التفتيش فى حياة طه حسين الخاصة ، بل امتد إلى حياة نجله د. مؤنس الذى استقر فى باريس سنة ١٩٥٧ ، بعد مضايقات بيروقراطية تعرض لها فى جامعة القاهرة ، وتم توجيه اللوم والانتقاد إلى طه حسين ، بل أكثر من ذلك فقد تزوجت حفيدة طه حسين ابنة مؤنس من زميل لها يابانى كان ذلك بعد حوالى ربع قرن على وفاة طه حسين ، ومع ذلك تم توجيه اللوْم والانتقاد إليه واعتبر مسئولا عن تلك الزيجة، وكأنه مطلوب منه أن يخرج من قبره ليمنع تلك الزيجة التى لم

يعرف أحدهم شيئا من تفاصيلها فضلا عن أنه ليس من حقهم التدخل فى الحياة الخاصة للآخرين على هذا النحو.

***

علميا ونقديا لا يجوز محاسبة الكاتب على مالم يكتبه ، هو يحاسب فقط على ما كتبه وما قال به ، أما ما لم يكتبه ، فلا شأن له به ولا شأن للنقاد به أيضاً ، والواقع أن بعضنا يطالب الكاتب «بأن يكتب ويبدى رأيه فى كل شىء ، وكأنه كشكول» جامع ، وإن كان ذلك يكشف عن ثقة ضمنية بالكاتب وتوقع أن يريح قراءة ومحبيه بأن يحدثهم فى كل ما يريدون وما يتوقعون أو يحلمون به ، لكن ما يجب أن يكون النقاد على هذا النحو من التوقع ، ولا أن يتعاملوا مع الكاتب بهذا المنطق، و هذا ما فعله بعضهم مع طه حسين ، فقد ذهبوا إلى أن طه حسين طوال حياته - ٨٤ عاما - لم يتعرض للقضية الفلسطينية ولا كتب عن فلسطين عموما «إن طه حسين لم يكتب منذ احتلال الصهيونية لفلسطين مقالا واحدا حتى انقضى أجله عن الصهيونية أو اليهود أو حق شعب فلسطين (١)

وما قاله أنور الجندى وثق به واعتمده الناقد رجاء النقاش

كما اعتمدته العديد من الدراسات الأكاديمية وصدرت أحكام عديدة حول طه حسين . وأكرر أن الكاتب لا يحاسب ولا ينبغي أن يحاسب على ما لم يكتبه وما لم يتناوله . ومع ذلك فهل - صحيح أن طه حسين لم يكتب كلمة عن فلسطين ولا عن إسرائيل وما تقوم به في فلسطين ولم يتعرض للصهيونية؟!

هذا ما نتوقف أمامه في الفصول القادمة.

---

(١) أنور الجندى : طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام ص ٢٧٨ الناشر : دار الاعتصام طـ ١٩٧٦.

الفصل الرابع :

فلسطين والطمع الصهيونى

يقسم بعض الكتاب بأغلظ الأيمان أن د. طه حسين لم يكتب كلمة واحدة طوال حياته الأدبية عن فلسطين، وأن فلسطين لم تكن موجودة بالمرة فى وعيه، وأن الخريطة التى عرفها وتمسك بها لم يكن بها فلسطين .. وقد فسر بعضهم ذلك بأنه كان معاديا لفلسطين وللعروبة، كارها لها، منحازا لأوروبا والغرب عموما، و أن ذلك جزء من عدائه للإسلام وكراهيته للأمة الإسلامية، بهذا جزموا وقطعوا، بينما رأى فريق آخر أن جيل طه حسين عموما، لم يستوعب ولم يتابع حجم ما كان يجرى على أرض فلسطين من صراع بين العرب والصهاينة .

لكن أرشيف طه حسين يكذب هؤلاء وأولئك على نحو قاطع ويلزمهم بتحمل كفارة يمين ومواجهة الأمانة العلمية، التى انتهكوها، ذلك أن طه حسين كتب كثيرا عن فلسطين ، بل نشرت «كوكب الشرق» ، عدد ٢٨ أكتوبر ١٩٣٣ ، أى قبل وفاته بأربعين عاما، مقالا حمل عنوان «فلسطين» ، وبعد ذلك

المقال بشهور كتب فى نفس الجريدة مقالا ثانيا عن فلسطين - عدد ٤ مارس ١٩٣٤ - عنوانه «غريب»(١).

مقال «غريب» يدور حول صديق فلسطينى له، هو الأديب والكاتب محمد على الطاهر، هرب من التعنت الإنجليزى فى فلسطين إلى مصر، ومرضت والدته بفلسطين وأراد أن يزورها، فمنعته السلطات البريطانية من دخول وطنه فلسطين فكتب د. طه مقاله يندد فيه بالاحتلال البريطانى ، ولم يكن ممكنا فى مقال مثل هذا ألا يتحدث عن فلسطين وأهلها وكذلك مصر وأهلها .

كتب طه حسين بأسلوبه العذب يقول «ليس مصر بلدا نازحا بالقياس إلى فلسطين ولا بالقياس إلى أى بلد من بلاد هذا الشرق العربى الذى تجمع بين أجزائه صلات المودة والحب، وعلاقات الثقافة واللغة والدين، فالرجل من أهله مقيم فى وطنه مهما تبعد به الدار، مضطرب بين مواطنيه مهما تنأ به الآماد، مادام لم يخرج من هذا الشرق العربى» . ويقول بتحديد وتدقيق أكثر «ليست مصر بلدا نازحا بالقياس إلى فلسطين فما ينبغى أن يكون الرجل من أهل فلسطين غريبا

---

(١) راجع هذا المقال فى ملاحق الكتاب

فى مصر وما ينبغى أن يكون الرجل من أهل مصر غريبا فى فلسطين، ولكن الظروف القاسية ، والخطوب العاتية، والأيام السود تأبى إلا أن يكون المصرى غريبا فى مصر فكيف بالرجل من أهل فلسطين إذا أقام على شواطئ النيل».

ويتحدث طه حسين عن العنت الذى يجده المصرى فى أن ينتقل من القاهرة إلى بنها أو قليوب رغم أنه بحكم الدستور والقانون يحق له التنقل كما شاء داخل مصر، وبين مدنها ومحافظاتها لكن الحكومة تتدخل - حكومة إسماعيل صدقى آنذاك - لتحد من هذه الحركة، فما بالنا بالمواطن الفلسطينى الذى يقيم فى مصر ويريد أن يزور فلسطين ؟!

ولا يعفى طه حسين الاستعمار مما يجرى، فقد جعل الشرقى والعربى غريبا فى وطنه وفى داره وآحال هذه الأوطان إلى سجن كبير، يشعر معه المواطنون أنهم غرباء فى بلادهم وأن الأوطان صارت سجنا كبيرا لهم .. ويبدى طه حسين دهشته من أن ثورة الاتصالات تلغى الحدود والمسافات بين الأوطان، إلا فى أوطاننا وبلادنا حيث يتفنن الاستعمار فى إقامة الحواجز واصطناع الحدود بينها .. ولنقرأ قوله : «كل شىء فى هذه الأيام يلغى ما بين البلاد

والأوطان من هذه الحدود التى أقامتها الطبيعة، جبلا حينا، ونهرا حينا وبحرا مرة وصحراء مرة أخرى وكل شىء فى هذه الأيام يخفف هذه الفروق التى أنشأتها الطبيعة بين الناس، ولكن هناك شيئا يقيم مكان الحدود الطبيعية حدودا أخرى ، ويقيم مكان الفروق الطبيعية فروقا أخرى، ويزيد التقاطع والتدابر بين الناس، وهو ظلم الاستعمار» .

ويتحدث بتفصيل أكثر : «ظلم الاستعمار يجعل الشرق العربى سجنا ضخما هائلا يسكنه عشرات الملايين من السجناء، وهو يقسم هذا السجن أقساما ويلزم أهله أن يقيموا فى عدة أقسام لا يخرجون منها، ولا يدخلون إليها إلا بإذنه ورضاه هو ...»

فهو يتحدث عن صديقه من أهل فلسطين الذى «أقام فى مصر منذ أعوام، وله فى سياسة بلده مذهب يكرهه المستعمرون، فهو يقيم فى مصر كأنه حر، وأكبر الظن أنه سجين، وهو راضٍ بهذه الحرية الضيقة وهو مغتبط بهذا السجن الذى اتخذ له من وادى النيل لأن له من السجناء المصريين أصدقاء يحبهم ويحبونه، يخلطونه بأنفسهم ويخلطهم بنفسه ..»

ويعرض طه حسين لمشكلة صديقه بكافة جوانبها الإنسانية والوطنية ثم ينهى بدعاء ونداء «ما أجدر الشرقيين أن يتفكروا فى هذا وأن يرحموا أخاهم هذا الغريب وأن يرحموا أنفسهم فكلهم غريب كهذا الرجل وأن يفكروا لأنفسهم في شيء من العزة والكرامة يطلقهم من هذه السجون الواسعة الهائلة التي يخيم عليها الظلام »

ويخاطب صديقه ويناشده أن يتعزى وأن يتأسى، وأن يعلم أنه لا يشقى وحده بهذه الآلام الثقال، وإنما يشقى بها له كل هؤلاء الشرقيين الذين يضطرهم الاستعمار إلى حياة الذل والبؤس والهوان».

المقال الأول : «فلسطين» كتب فى مناسبة عامة، مناسبة حزينة، ففى سنة ١٩٣٣ لاحظ الفلسطينيون ازدياد معدلات الهجرة اليهودية إلى فلسطين وزيادة رأس المال اليهودى هناك وكانت الهجرة اليهودية خلال ذلك العام تجاوزت بقليل ضعف الهجرات التى تمت سنة ١٩٣٢، بلغ عدد المهاجرين فى ١٩٣٣ حوالى ٣٠ ألفاً ، بالإضافة إلي خمسة آلاف سائح أقاموا نهائيا بفلسطين وبشكل غير شرعي، كل ذلك تم بمعونة المندوب السامى البريطانى، الذى امتنع عن تقديم وإعلان

الأعداد الحقيقية للفلسطينيين، وقامت مظاهرة بالقدس يوم ١٣ أكتوبر ١٩٣٣ احتجاجا على تلك الهجرات، وتجنب المتظاهرون المرور بالأحياء اليهودية حتى لا تقع اشتباكات أوصدامات مهم، ومع ذلك قتل أحد المتظاهرين وجرح عدد آخر، ولم يهدأ الموقف وفى ٢٥ أكتوبر قامت مظاهرة فى مدينة حيفا، وأخرى فى نابلس يوم ٢٧ أكتوبر، وهاجمها الجنود الإنجليز بعنف، فقتل منهم حوالى ١١ فلسطينيا واعتقل عدد آخر كان من بينهم القيادات الفلسطينية مثل: جمال الحسينى وعزة دروزه وعونى عبدالهادى ووقعت إصابات كبيرة (١) ، وعلى هذه الخلفية كتب طه حسين مقاله «فلسطين».

يتحدث طه عما يربط المصريين بالفلسطينيين ، وضرورة الوقوف إلى جانبهم «لو لم يكن بيننا وبين إخواننا من أهل فلسطين إلا هذا الاخاء الإنسانى العام الذى تشترك فيه الشعوب وأجيال الناس، مهما تختلف الأمكنة والأزمنة والظروف، لكان من حق الأحداث التى ألمت بهم أمس أن

---

(١) راجع: هنرى لورنس ترجمة بشير السباعى : مسألة فلسطين، المجلد الثانى ، الكتاب الرابع، صفحات ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦ .
الناشر : المركز القومى للترجمة ٢٠٠٧.

تذيب قلوبنا أسى وحزنا .. ثم يضيف «نعم لو لم يكن بيننا وبين إخواننا من أهل فلسطين إلا هذا الإخاء العام، لكان من الحق علينا ألا نقف من هذه الأحداث التى ألمت بهم أمس موقف الذين ينظرون ولا يشعرون، ويشهدون ولا يتأثرون، فإن الذين يشهدون هذه المشاهد المؤلمة، ثم لا يتألمون ، ويتلقون هذه الأنباء المحزنة، ثم لا يحزنون، ويرون شعبنا بأسره يجاهد ليعيش فيحال بينه وبين العيش، ويكره إكراها بالحديد والنار على أن يخضع للذلة والفقر وما يتبع الذلة والفقر (.......) ليسوا من الناس الذين يستحقون هذا الاسم..»

هذا كله إذا لم يكن بيننا وبين أهل فلسطين سوى الإخاء الإنسانى العام، لكن الواقع أن ما يربطنا بالفلسطينيين ليس الإخاء الإنسانى العام فقط بل أكثر من ذلك بكثير «... كيف وبيننا وبين إخواننا من أهل فلسطين صلة الجوار من الدار والاشتراك في اللغة والدين، والاشتراك فى المثل الأعلى، والاشتراك فيما نلقى جميعا من الظلم وما نحتمل جميعا من العسف وما نسام جميعا من هذا الضيم المخزى، الذى لا يرضى به ، ولا ينبغى أن يرضى به كرام الناس».

ويعبر عن عواطفه تجاه الفلسطينيين «كم تحب أن يشعر إخواننا من أهل فلسطين أنا شركاؤهم فيما يحسون من ألم وحزن، وفيما يضمرون من حسرات، وما يظهرون من زفرات وما يعلنون من سخط وإنكار، لهذا الظلم الذى يصبه عليهم الأجنبي صبا، لا لشيء إلا لأنهم يريدون أن يعيشوا آمنين فى ديارهم ..» ثم يضيف : «كم نحب أن يستيقن إخواننا من أهل فلسطين، أننا نجد ما يجدون، ونشعر بما يشعرون، ونألم لما يألمون له، ونود لو استطعنا أن نرد عنهم بعض ما يلقون من الشر، ونكشف عنهم بعض ما يصيبهم من الضر، كم نود أن يستيقنوا بأن ما بينهم وما بيننا من الصلات، أمتن وأصدق من أن نقف معرضين أو فاترين أمام هذه المحن المنكرة التى تسلط عليهم فى غير رعاية لحرمة ، ولا احترام لحق، ولا تأثر بالدين أو الأخلاق».

ويستعرض ما قام به الاستعمار البريطاني فى مصر من ظلم وسفك للدماء، وما يقوم به كذلك فى فلسطين، وتصدى الفلسطينيين له «اصطبغت أرض مصر بدماء المصريين، كما اصطبغت أرض فلسطين بدماء الفلسطينيين».

ويندد طه حسين بالإنجليز وبالأوروبيين عموما «.. يزعم

الأوروبيون بعد ذلك أنهم دعاة حضارة ورقي، ورسل سلم وأمن وملائكة رحمة وحب، وهداة إلى النور بعد الظلمة ، كلا ليس من الدعوة إلى الحضارة ولا إلى الرقى، أن يعتدى على الناس وهم آمنون، وأن يكره الناس على ما لا يريدون ..» ثم يضيف .مندداً بالهجرات اليهودية وسعى الدول الأوروبية لحل مشكلة اليهود على حساب الفلسطينية «وليس من الرحمة والحب أن تؤمن قوما لتخيف قوما وأن ترضى من تحب على حساب من لا تحب، وأن تخلق بين طبقات الناس من ألوان البغض والعداء، ما ينتهى إلى مثل ما انتهت إليه الحال أمس فى فلسطين..»

وينبه د. طه إلى أن الأوروبيين يحتكمون فيما بينهم إلى الديمقراطية وإلى العدل والقانون، لكنهم مع غيرهم، أى معنا نحن ، يفعلون العكس تماما «.. هم يكرهون أن تحكم بينهم سيوفهم ولكنهم لا يكرهون فيما يظهر أن تحكم سيوفهم فى أمر غيرهم من الشعوب، وإلا فما إخضاع مصر لقوة الإنجليز وما إخضاع فلسطين لقوة الإنجليز وطمع الصهيونيين، وما إخضاع غير مصر وفلسطين من بلاد الأرض وأقطارها لهذه القوى الأوروبية الثائرة المتنمرة التى

تتخذ أشكال السلم والأمن فى بلادها حتى إذا تجاوزتها كشرت عن أنياب حداد».

المقال يمتلئ انتقادا حادا وهجوما شديدا على الأوروبيين، من جراء ما يفعلونه تجاه الشرق والشرقيين، ويحذرهم من مستقبل ينهض فيه الشرقيون ويحملون العداء وربما الكراهية للأوروبيين.

وكما بدأ بفلسطين والفلسطينيين يتوقف عندهم بالدعاء والإكبار «فى ذمة الله شهداء فلسطين، وفى ذمة الله صرعى فلسطين، وفى ذمة الله آلام العرب فى فلسطين، فليس شىء مهما يكن، وليس ألم مهما يعظم بكثير فى سبيل الوطن، وفى سبيل الحرية والعزة والكرامة والاستقلال».

بعد ذلك كله وغيره كثير، يجلس أحد المنظرين وبعض الأيديولوچيين يتثاءبون ويتمطون ويعلنون بثقة بالغة ويقين مطلق أن د. طه حسين طوال حياته لم يكتب كلمة فلسطين ولا ذكر شيئا عنها

!! بئس ما يجهلون

الفصل الخامس:

يهود مندمجون

واقعتان فى حياة د. طه حسين العلمية اتخذ خصومه منهما مادة للهجوم عليه، فى مجال الحديث عن الصهيونية وإسرائيل، الأولى تتعلق بإشرافه على رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة، تقدم بها إلى جامعة القاهرة «إسرائيل ولفنسون» عن اليهود فى جزيرة العرب خلال الجاهلية وصدر الإسلام ، ونوقشت الرسالة فى صيف سنة ١٩٢٧.

الثانية أن د. طه دعى لإلقاء محاضرة فى مدرسة الطائفة الإسرائيلية (اليهودية) بشارع النبى دانيال بالإسكندرية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٣، ونشر نص المحاضرة (١) بالكامل مؤخرا في القاهرة وليس ١٩٤٤، كما يردد خصومه، تحدث فيها عن «اليهود والأدب العربي» .. ورغم أن نص المحاضرة تقريبا نشرته جريدة الوفد المصرى عدد ٢٦ ديسمبر ١٩٤٣، فإن أحدا من مهاجمي د. طه والمحاضرة الم يكلف نفسه جهد الرجوع إلى ما نشر، وفيه الأفكار التى طرحها وفقرات

(١) راجع نص المحاضرة كاملا فى « أوراق طه حسين ومراسلاته» ج٢ . الناشر دار الكتب والوثائق القومية سنة ٢٠٠٧

(٢) أنور الجندى ، مرجع سابق ص ١٥١.

منها، فضلا عن الأجواء التى أحاطت بها، فنجد أنور الجندى يعتمد على تلخيص سريع ودقيق نشرته إحدى المجلات، ثم يعقب هذا بالقول «وقد أثار هذا الكلام شبهة الصهيونية» (٢) ولا يكتفى أنور الجندى بذلك بل يعود إلى حكاية إسرائيل ولفنسون، ورسالته العلمية بالجامعة عن اليهود فى الجاهلية وصدر الإسلام ويقول : «ولا ريب أن هذا الذى اختصرناه يكشف هوس طه حسين هو وتلميذه اليهودى أن يضفيا على اليهود ما ليس لهم، وما لم يكن فيهم، بل هو فضل خلق على اليهود، فما كان لليهود على العرب أو غيرهم على مر التاريخ البشرى أى فضل» (١) .

والواقع أن فى حياتنا الثقافية والفكرية وفى حياتنا العامة، هناك فريق لا يفرق بين اليهود عامة واليهودية كديانة من جانب والصهيونية كحركة سياسية وفكرية من جانب آخر، وعند هؤلاء أن كل يهودى هو صهيونى بالضرورة، وأن كل يهودى هو إسرائيلى يؤيد ما تقوم به إسرائيل، والطريف أن هذا ليس رأى فريق بيننا فقط، بل كان رأى قادة الصهيونية أنفسهم ومعظم قادة إسرائيل إلى اليوم، خاصة «بنيامين

(١) أنور الجندى: مرجع سابق ص ١٥٤

نتنياهو» رئيس الوزاء .. لكن الواقع غير ذلك، هناك يهود صهيونيون، لكن هناك يهود ليسوا كذلك، بل هناك يهود ضد الصهيونية وضد إسرائيل ، بل توجد طائفة يهودية معروفة وتتركز فى القدس ترى أن قيام دولة إسرائيل أمر ضد مشيئة الرب، وأن تجمع اليهود فى مكان واحد يشكل خطرا حقيقيا عليهم، وهناك بين اليهود من يرى أن الأفضل لليهودى الاندماج فى المجتمع الذى يعيش فيه، وليس الخروج منه إلى مجتمع مستقل، وفى واقعنا ومجتمعنا نحن هناك من لا يفرق بين اليهودى والصهيونى ، لكن التفريق بينهما واجب .. وفضلا عن ذلك فإنه من الناحية الإسلامية المسلم مطالب باحترام اليهودية كديانة، بل من شروط صحة الإسلام أن يؤمن المسلم بما أنزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله، ومن أبرز ما أنزل من قبله التوراة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يجب أن نعترف باليهود وأن نحترمهم، ومشكلة العرب عموما كانت مع الصهيونية ومع إسرائيل وليس مع اليهود عموما، ولدينا عدد من الكتاب والباحثين انتبهوا مبكرا إلى ضرورة التمييز بين اليهودية والصهيونية وكاتب مفكر مثل د. عبد الوهاب المسيرى كان لديه هذا التميز

ويمارسة بشفافية تامة.

(١)

طه حسين كان يفرق بين اليهودى والصهيونى، وليس هو وحده، بل كذا فعل من قبله رشيد رضا وشكيب أرسلان وجورجى زيدان وآخرون من الكتاب والمفكرين الكبار، ولنعد إلى حكاية إسرائيل ولفنسون، ورسالته الجامعية ! إذ يبتسر خصوم طه حسين الكثير من المعلومات، فقد وجه ولفنسون الشكر فى مقدمة الرسالة إلى اثنين من أساتذته أولهما شيخ أزهرى، معمم، يشهد له الكثيرون بالفضل والعلم الغزير، هو الشيخ عبدالوهاب النجار .. «أقدم تمنياتى الطيبة وعاطر ثنائى لحضرة الأستاذ العلامة الشيخ عبدالوهاب النجار (١) الذى أسدى إلى الكثير من النصح والإرشاد» .. أستاذه الثانى هو د. طه حسين.. وجاء شكره له عقب شكره للشيخ النجار .. يغفل هؤلاء أيضا أن هذه الرسالة فورا إنجازها قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر بنشرها فى كتاب سنة ١٩٢٧، وهذه اللجنة كان يقوم عليها كوكبة من كبار الكتاب

---

(١) االشيخ عبد الوهاب النجار كان واسع العلم ملما بعدة لغات أجنبية، وشارك فى ترجمة كتاب المستشرق الألمانى جولد زيهر « العقيدة والشريعة فى الإسلام»

والباحثين يتقدمهم العلامة أحمد أمين، ولو أن الرسالة بها ضعف أو عوار علمي لما نشرتها اللجنة، ولو أن الرسالة بها زيف أو تجاوز للحقيقة فيما يتعلق بدور اليهود لما سكت عنها المجتمع العلمي والثقافي المصرى والعربى، وقد كان يقظا ومتابعا، وقد أعادت إحدى دور النشر طباعة هذه الرسالة فى السنوات الأخيرة (١) ولو أن فيها ما يمس الضمير الدينى أو الوطني للمواطنين فى مصر لما مر الأمر هكذا .. استقبل الكتاب في طبعته الجديدة باهتمام من الباحثين والدارسين ..

فى تقديمه للرسالة - الكتاب - المؤرخ فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٢٧، تحدث د. طه حسين عن تاريخ اليهود فى بلاد العرب، سنوات الجاهلية وصدر الإسلام وعرض لجهود المستشرقين فى هذه الدراسات مؤكدا أنهم «.. وفقوا بعض التوفيق ولكن أخطأتهم الإصابة فى كثير من الأحيان لأن حظهم من الثقافة العربية السامية لم يكن يعدل حظهم من القدرة على استثمار مناهج البحث فاضطروا إلى طائفة من الأغلاط لم يكن منها بد (٢)» وأخذ د. طه يشيد برسالة تلميذه ويعدد أوجه التميز بها ومنه أنه «.. وفق إلى عرض مباحث المستشرقين حول هذا الموضوع فى اللغة العربية ولم تكن قد عرضت من قبل،

(١) مكتبة النافزة سنة ٢٠٠٦

(٢) رسالة ولفنسون ص ١٠

ووفق بعبارة موجزة إلى بسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره شهبا عليا لذيذا ممتعا فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة ..»

(١) ويوجه د. طه إلى تلميذه النصح أو يتمنى عليه فى المستقبل أن يواصل ذلك الطريق الذى بدأه « .. يمضى فى عنايته بهذه الناحية من حياة اليهود والصلة بينهم وبين الأمة العربية بعد الإسلام كما عنى بها قبل الإسلام مهتديا بهدى العلم الصحيح الذى لا يعرف ممالأة ولا شائبه ولا يرى للعالم إلا غرضا واحدا مقدسا هو السبيل إلى الحق والجد فى الوصول إليه» .

أما المقدمة التى وضعها د. ولفنسون فتقتضى التوقف عند بعض ماورد فيها، إذ يستشعر هو ما أثير حول الرسالة وحول طه حسين، وفضلا عن ذلك فإنه يقدم إجابات لبعض التساؤلات التى ثارت بعد نصف قرن من وضع الرسالة .. يقول «لقد صرح لى غير واحد من الأصدقاء بأنهم يوجسون خيفة من ثورات عواطف بعض الأندية من المسلمين واليهود من جراء التعرض لموضوع الخلاف الذى نشأ بين الرسول

(١) المرجع السابق صفحة ١٦٨

ويهود يثرب، وأن ميلنا إلى أحدى الفئتين قد يكون سببا فى إثارة سخط الطائفة الأخرى .. ويبادر إلى الرد مفندا ذلك التخوف أو متقبلا له «نعتقد أن رسالتنا موجهة إلى طائفة المفكرين الذين لا ينشرون دعوة خاصة في كتاباتهم بل يقصدون دائما إلى البحث المجرد عن العواطف القومية والدينية» (١) .

يعترف الباحث بأنه لا يقصد دعوة خاصة، أى ايديولوجيا معينة، من هذا البحث، تحديداً كونه يهودى، بل إنه يقصد البحث العلمي والفكرى المجرد من الانحياز للعاطفة الدينية أو حتى القومية .. فيما يخص العواطف الدينية أشارت إليها، أى اليهودية والإسلام؛ لأن الموضوع الذى يتناوله يرتبط ارتباطا مباشرا بالديانتين معا، أو أتباع الديانتين معا .. أما المسألة القومية فتتناول قضيتين كانت كل منهما مثارة بقوة أنذاك، القومية العربية، وكانت مشتعلة خاصة بعد انهيار الخلافة العثمانية وارتفاع الموجة القومية .

كانت هناك كذلك القومية اليهودية، ممثلة فى الحركة الصهيونية وكانت نشطة وفعالة في البلاد الأوروبية وتمارس

---

(١) المرجع السابق . صفحة ١٠

نشاطها ودعواتها في فلسطين بتهجير أكبر عدد من اليهود إلى فلسطين والسعي نحو جعل وعد بلفور حقيقة على الأرض.

والمعيار هنا .. هل التزم «ولفنستون» في دراسته بالروح التي تحدث عنها، أي البحث العلمي وفق القواعد العلمية بغض النظر عن العواطف والهوى الخاص .. ؟ ويمكن أن نطرح التساؤل بشكل مباشر .. هل نلمس في البحث الذي بين أيدينا انحيازاً غير علمي لليهود وعدم أمانة علمية في تناوله لقضايا الإسلام والمسلمين ؟ سطور الكتاب تحمل الإجابة، وتؤكد أنه حاول قدر الجهد الالتزام بالروح العلمية، ولنتأمل ما يكتبه عن الصراع بين اليهود والمسلمين زمن الرسول صلى الله عليه وسلم .. يقول : «وما من أحد ينظر بإمعان وإنصاف إلى حوادث اليهود والأنصار في يثرب دون أن تمتلئ نفسه بشعور الإجلال للفئتين ؛ لأن النضال العنيف الذي وقع بينهما قد برهن على أن هذا النزاع كان من الأمور المقدرة في حياة كل من تتبع الحوادث التي وقعت في المدينة

---

(١) رسالة ولفنسون ص ١١

بعد أن هاجر إليها الرسول ، فقد كانت الضرورة الطبيعية لنجاح مشروعات المسلمين تقتضى حتما بوقوع العراك الشديد بين الطرفين (١)،ونراه يعتمد بشكل كبير على المصادر الإسلامية وفي مقدمتها القرآن الكريم والسيرة النبوية لابن هشام وغيرها .. وفي استعراض للصراع بين اليهود والمسلمين، وتحالف اليهود مع كفار قريش ضد الرسول يرصد الثابت في الصراع والمتغير، وما يؤخذ على اليهود في ذلك بالقول «من ينظر إلى حالة بنى النضير التعسة التي صاروا عليها بعد إجلائهم عن بلاد سكنوها منذ قرون، وكانوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه إليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع إلى أرضهم، وبحثهم عن الأنصار والحلفاء (١) ..» إلى أن يقول «الذي يلامون عليه بحق والذى يزعم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء إنما هو تلك الحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية» (٢) ويؤكد ولفنستون على ذلك المعنى بالقول «إن ضرورات الحرب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٨

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٨

والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين.

هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة» (١) .

ويستشهد على ذلك بالآية الكريمة رقم ٥١ من سورة النساء (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا).

---

(١) رسالة ولفنسون ص ١٦٩

تستعرض الرسالة جوانب الصراع بين اليهود والمسلمين في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتغير الأمر تماما بعد تلك المرحلة أي انتهاء الخصومة بين الرسول وبطون يثرب .. «شرع اليهود ينظرون بعيون الإكبار والاحترام إلى جيوش المسلمين التي كانت تغمر كالسيل أقطار العالم ونواحيه، وكانت هذه الجيوش قد قضت على سلطة الدولة الرومية في أقاليمها القاصية والدانية، تلك الدولة التي ملأت تاريخها بحوادث الظلم والفساد وإهراق الدماء مدة طويلة من الزمان» (١) ويضيف د. ولفنستون قائلا : «كان اليهود في أغلب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش المسلمين بالحفاوة والإكرام لأنهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون فيهم قوما يؤمنون بإله موسى وإبراهيم (٢)».

ولم قف العلاقة بين المسلمين واليهود عند هذا الحد تاريخيا وجغرافيا «لقد ازدادت هذه الروابط متانة مع امتداد الزمن حتى دخل اليهود في جيوش المسلمين ليناضلوا معهم في أقاليم الأندلس» (٣) .

وفي التقييم النهائي ، فإن الإسلام كان فاتحة خير بالنسبة لليهود، رغم الصراع الذي وقع بيثرب في بداية

(١) رسالة ولفنسون ص ١١

(٢) و(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة

الإسلام يقول هو «إن الخسارة القليلة التى لحقت يهود بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس إلى الفائدة التى اكتسبها العنصر اليهودى من ظهور الإسلام ، فقد أنقذ الفاتحون المسلمون آلافا من اليهود كانوا منتشرين فى أقاليم الدولة الرومية، وكانوا يقاسون ألوانا من العذاب .

زد على هذا أن استعانة اليهود بالمسلمين فى الأقاليم الإسلامية كان سببا فى نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها فى تاريخ الآداب العربية والعبرية زمنا طويلا» .

ويتمتع الرجل بتواضع العلماء ، فهو لا يزعم أن الآراء التى توصل إليها حقائق مطلقة أو يقين ثابت، بل هى «عرضة للنقد والشك، ونعتقد أنه لو رجحت صحتها لكان ذلك لنا مكافأة عظيمة يرتاح لها الضمير ويطمئن إليها الخاطر» .

رسالة بهذا المعنى، يجب أن يحسب لطه حسن الاشراف العلمى عليها، فقد التزم صاحبها الروح العلمية، ولم ينجرف وراء هوى أو ميل خاص، يطغى على الجانب المنهجى والبحثى، لكن هناك من ينتقد ويتشكك دون قراءة، ويبدو أن اسم الباحث - إسرائيل - هو ما أغراهم بالهجوم والتشكيك، بل الاتهام القاطع .

(٢)

محاضرة د. طه حسين في المدرسة المجانية للطائفة اليهودية بالإسكندرية عن «اليهود والأدب العربى» أثارت لغطا لدى من لا يميزون بين اليهود عموما وقادة دولة إسرائيل تحديدا ، ومن يريدون تقييم التاريخ العربى كله بمنظار الصراع العربى - الإسرائيلى ، وهذا خطأ منهجي وعلمى فادح يرتكبه هؤلاء، كان لليهود تواجد فى الدولة الإسلامية وفى المجتمعات العربية، وحدثت لحظات لقاء مهمة بين المسلمين والعرب من جانب واليهود من جانب آخر، خاصة فى بلاد الأندلس، واستعرض د. طه حسين كل ذلك فى محاضرته.

ومن يتعرضون للمحاضرة أغفلوا الجو العام لتلك المحاضرة، فقد حضرها وكيل محافظة الإسكندرية ، كما حضرها عمداء الكليات بجامعة فاروق - الإسكندرية حاليا - وأساتذة الجامعة وطلابها، وكان مقررا أن يحضرها الأمير عمر طوسون، ولكنه أرسل «كلمة اعتذار رقيقة» حيث لم

(١) نبهني إلى نص هذه المحاضرة الزميل الأديب إبراهيم عبد العزيز صاحب الكتابات العديدة عن د. طه حسين، فله مني الشكر والتقدير.

يتمكن من الحضور بسبب «انحراف صحته» .. وهكذا لم تكن المحاضرة في محفل يهودى بالمعنى الضيق للكلمة، لكنها كانت في تجمع ثقافي وأدبى، مصرى على أرض الإسكندرية إذ حضرها كذلك «طائفة كبيرة من أهل الثقافة والأدب بالمدينة» .

والواقع أن المحاضرة تفيض إحساسا عميقاً بالعروبة وبمصريته .. يقول «شارك اليهود العرب فى حياتهم وتعلموا لغتهم للاستفادة بها فى حياتهم العملية والعقلية ، فكان من اليهود شعراء ممتازون في الشعر الجاهلى وأشهرهم السموأل. ويقول أيضا «لوحظ أن الشعر اليهودى كان كالشعر العربى فى قوافيه وأوزانه وفى أسلوبه إلا أنه كان مصطبغا بلون هادئ من الحزن كالدعوة إلى الخير والاستخفاف بالحياة، وهذه النغمة اليهودية تأثر بها العرب أنفسهم فى شعرهم.»

ويتعرض طه حسين إلى الصراع بين العرب واليهود فى العصر الإسلامى الأول، خاصة زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، وانتهت هذه المرحلة بسرعة، خاصة مع اتساع الفتوحات العربية الإسلامية، يقول «.. ظهر نوع من التعاون

بين العرب الفاتحين واليهود الذين كانوا مستقرين فى مصر وإفريقيا الشمالية وبلاد الأندلس ، وعلل اليهود هذا التعاون بأن العرب واليهود من أصل واحد هو الجنس السامى، بينما الروم يخالفونهم فى الجنس والدين والميول والمثل السياسية العليا، وأعان اليهود العرب فى تيسير أمور الإدارة وتنظيم الحكم فى البلاد التى فتحوها» .

ويلاحظ د. طه أن نشاط اليهود وتأثيرهم فى الحياة الأدبية والفلسفية فى العصر الإسلامى كان محدودا «فلا نكاد نعرف كاتبا أو فيلسوفا يهوديا فى هذا العصر» ويعلل ذلك بأن اليهود شغلوا بالحياة الاقتصادية والمالية، وكان لهم فيها تأثير عظيم .

ويتوقف د. طه فى محاضرته مطولا أمام نشاط اليهود الثقافى والعقلى فى الأندلس مع الحكم العربى «فقد تعلم اليهود اللغة العربية ولم يجدوا فى ذلك مشقة ما فأتقنوا هذه اللغة كالعرب أنفسهم وزاحموا العرب، فكان منهم الكتاب والموظفون والسفراء الذين كانوا يقومون بالسفارة بين الخلفاء وملوك النصارى فى أوروبا، وشاركوا العرب فى كل ما عرفوه من علم وحضارة فتعلموا الأدب والفلسفة والطب. وقد فعل

النصارى مثل اليهود فى تعلم اللغة وشاركوا العرب أيضا فى الحكم والسياسة».

وإذا كـان العـرب والمسلمـون في الأندلس منحـوا هذه الفرص لليهود والنصارى ، سواء فى الثقافة والحياة العقلية أو فى أمـور السيـاسـة والحكم، فـهذا يـحسب لهم ، وهـو أمـر إيجابى يجب أن نعتز به جميعا، بل وتعتز به الإنسانية .

ولعل ما أثار المتزمتين ضده وضد المحاضرة، هو حديثه عن دور أو فـضل اليـهود على الأدب والثقـافة العـربيـة، فقـد أشـار إلى أن اليـهـود شـاركـوا فى نقل التـراث اليـونـانى إلى اللغة العربية، والواقـعة صـحيـحة، ولم يكن اليـهود وحـدهم - كان هناك المسيحيون أيضـا، ومن يعرف تاريخ الترجمـة إلى العـربية فـى القرون الـهـجرية الأولى يدرك ذلك، أمـا مـا تميـز اليـهود به ولعبوا فيه دورا بارزا، هو نقل التـراث العربى فيمـا بعد إلـى أوروبا، وتحـديدا اللغـة اللاتينيـة، فـقد ترجـمت بعض أعمال ابن رشد ، خـاصة شروحه لأرسطو إلى اللغة العبـرية، ولم يكن ابـن رشـد وحـده ، ترجم آخـرون غـيره إلى العـبـرية، ومنها انتقل إلى اللاتينية وعرفته أوروبا وتعلمت منه، يقول طه حـسين فى مـحـاضـرته «ومـركـز الشـرق فى ذلك الوقت كـان

كمركز أوروبا فى الوقت الحاضر، إذ تركزت فيه الحياة العقلية، وكانت أوربا تنظر إلى الشرق كمصدر للفلسفة والثقافة» ويقول كذلك «فالأدب العربى الذى كان وسيلة لتثقيف أوربا مدين لليهود فى جعله أدبا عالميا، إذ هم الذين نقلوه إلى لغة عالمية هى اللاتينية ، ثم نقل بعد ذلك إلى لغات أخرى انتشرت بالتدريج» .

لا ينتقص ذلك من قدر الثقافة العربية ولا يقلل من شأنها، والاعتراف بالفضل لذويه فضيلة أخلاقية وقيمة علمية، والذين اتهموا طه حسين بشبهة الصهيونية والميل نحو اليهود فى تلك المحاضرة يجهلون الكثير من الحقائق، فدارسو المخطوطات العربية يعرفون جيدا أن هناك بعضها فقد أصله العربى ، ولم يبق منه سوى الترجمة العبرية، وبفضل هذه الترجمات نتعرف على الدور والجهد العربى، والمتابع للمؤتمر السنوى الذى يعقده مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، يجد أن هذا الموضوع قتل بحثا، وبات من البديهيات ، فمع خروج العرب من الأندلس فقدت مخطوطات كثيرة، وما كان لنا أن نعرف شيئا عنها إلا عبر الترجمات ومنها الترجمات إلى العبرية، والتى قام بها باحثون يهود فى ذلك العصر.

ومع ذلك يمكن لباحث أو قارئ أن يبدى رأيا غير الذى قال به طه حسين، أو أن يختلف مع آرائه، لكن ليس معنى هذا أن نتهم طه حسين بالميل نحو اليهود والصهيونية فهذا تعسف كامل، فضلا عن أنه ينطوى على درجة معيبة من الجهل بالكثير من الوقائع وجوانب الحياة الثقافية العربية والإسلامية .

الجزء الأخير من المحاضرة يقطع الشك باليقين، فهو يحمل أفكارا مضادة لما كانت تطرحه الصهيونية على اليهود فى مصر وفى غيرها من البلدان؛ إذ تحدث عن الأدب العربى الحديث، وأبدى ملاحظة مهمة، وهى أن «فئة قليلة من اليهود المصريين اشتركت بنصيب فيه» وهى ملاحظة صائبة ودقيقة، فلا نعرف غير الشاعر مراد فرج - يهودى مصرى - شارك فى الحياة الشعرية والثقافية، وهناك آخرون غيره لكن تأثيرهم كان محدودا .. وقد اتجه عدد آخر من الكتاب اليهود، كما يلاحظ طه حسين، إلى الكتابة بغير العربية، بالفرنسية غالبا، وكان اهتمامهم عموما بالأدب الغربى، بحكم أنهم كانوا يرون الازدهار فى الثقافة الغربية، وربما لأنهم كانوا يتعلمون فى المدارس الأجنبية ، التى كانت منتشرة فى

مصر، مطلع القرن العشرين.

كان طه حسين يتحدث فى حشد من المثقفين والمهتمين بالثقافة والأدب العربى، وكان بينهم عدد من أبناء الطائفة اليهودية، هو وجه الحديث إلى الحضور جميعا، لكنه فى النهاية اختص ابناء الطائفة اليهودية المتابعين لمحاضرته بعبارة ذات معنى مهم، قال لهم إن دعوته لإلقاء هذه المحاضرة ، يبشر بتوجيه اهتمامهم إلى الأدب العربى لكونهم «مصريين يتكلمون العربية» ، وهذا يعنى أنه يريدهم أن يندمجوا فى الثقافة العربية وأن يهتموا بالأدب العربى، باعتبارهم مصريين يتحدثون العربية، وكانت الصهيونية تدعوهم إلى الحديث باللغة العبرية والاهتمام بالثقافة العبرية وليس الثقافة العربية وأدبها، فضلا عن اللغة العربية ذاتها، وهو يعتبرهم مصريين، ويريدهم أن يبقوا كذلك، وكانت الصهيونية تدعوهم إلى عدم البقاء فى أوطانهم، بل أن يهاجروا ويخرجوا إلى «أرض الميعاد» أو «الوطن القومى لليهود» على أرض فلسطين.

قالت المجلة التى اعتمد خصوم طه حسين على تغطيتها للمحاضرة بالحرف «ختم الدكتور حديثه داعيا يهود مصر

إلى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية والاندماج فى سوادهم اندماجاً روحياً وتدارس أدبهم شعرا ونثرا».

ويكفيه ذلك للقول أنه كان منتبها لمخاطر الصهيونية ويريد اليهود المصريين أن يتجنبوها بالاندماج فى المصريين من أهل الثقافة العربية اندماجا روحيا وأدبيا وثقافيا، لكن الغرض مرض، وخصوم طـه حسـين قرروا ألا يدرسوا ولا يقرءوا ما قال وما كتب، اكتفوا بالهجوم والتخوين تارة والتكفير تارة أخرى .

الفصل السادس:

فلسطين عربية والصهيونية صناعة غربية

يواجه طه حسين مشكلة مع نقاده وقرائه، فالجميع يتعاملون مع كتبه المنشورة على أنها كل إنتاجه، ومن ثم لا يجدون فيها ما يريدونه أو يتوقعونه حول مشكلة إسرائيل والقضية الفلسطينية فراح بعضهم يتهمه، وحين يضع طه حسين كتابا عن «الفتنة الكبرى» أو «حافظ وشوقى» أو عندما يكتب رواية دعاء الكروان لا يجب أن نتوقع منه أن يقفز من موضوعه الأصلي ليخوض في المسألة الفلسطينية، لكن ليس معنى هذا أنه لم يكن على دراية بما كان يجرى على أرض فلسطين، فلم يكن يسافر بالطائرة كان سفره المفضل بالباخرة أو القطار نعرف من كتاب قرينته «معك» أنهما طوال سنوات الحرب العالمية الثانية، حين كان السفر إلى أوروبا غير مأمون كانا يذهبان معا إلى لبنان، هناك كان يريحه الجو صيفا، وكان يجد من أهلها استقبالا طيبا وحبا وودا صادقين، وكان يذهب إلى لبنان عبر فلسطين، فلم يكن يسافر

بالطائرة كان سفره المفضل بالباخرة أو بالقطار ونعرف كذلك أنه شارك فى مؤتمر علمى بلبنان وانتقل منها إلى حيفا ثم نابلس والقدس، أى أنه كان يرى فلسطين ولعله التقى العديد من أهلها هناك .. ولعله كذلك استمع منهم وتابع بنفسه، خاصة أنه أقام داخل فلسطين فى قلب القدس «المدينة القديمة» .

مشكلة طه حسين أنه لم يترك لنا كتبه فقط، ويتناسى كثيرون أنه كان يكتب للصحف، منذ فترة بعيدة، قبل أن يسافر إلى فرنسا ثم بعد أن عاد منها، ظل يكتب بانتظام ربما مقالين كل أسبوع، هو جمع المقالات الأدبية والفكرية - فقط - فى كتب، لكن المقالات السياسية ينظر إليها على أنها مرتبطة بالأحداث اليومية والآنية، وتنتهى بانتهائها، لذا لم يفكر نقاده أن يراجعوا تلك المقالات، وليتهم رجعوا إليها، لوجدوا فيها الكثير والكثير مما يبحثون عنه، أعنى قضية فلسطين وإسرائيل .

ونعرف كذلك من «معك» أنه أثناء الحرب العالمية الثانية وحين اقترب الألمان من العلمين، هرب بعض المصريين من العاصمة إلى الأقاليم، خاصة فى الصعيد، وهرب الفرنسيون

الأحرار إلى لبنان، وأصاب الذعر اليهود المقيمين في مصر، وساعد هو بعضهم على الرحيل، وتسمى قرينته منهم «تيجيرمان» .. لعله ساعد من كانوا يعملون في جامعة فؤاد آنذاك من الأساتذة والمعلمين .

إذن هو عارف بأحوال فلسطين وعارف كذلك بتهديد النازى لليهود .. ولنتأمل كتاباته في هذا الموضوع، وهى كثيرة، وأظن أنها وافية .

مع نهاية سنة ١٩٤٤ ، كان واضحا أن الحرب العالمية الثانية على وشك الانتهاء لصالح الحلفاء ، وأن الهزيمة سوف تكون من نصيب هتلر وألمانيا ومن معها من «دول المحور» كاليابان، وبدأ المنتصرون يفكرون فى ترتيب أوضاع العالم كله، بعد الحرب، سواء داخل البيت الأوروبى نفسه أو فى بلاد آسيا وإفريقيا ، أى ما كانت تسمى المستعمرات القديمة، وكان هناك حديث عن لقاء مرتقب بين القادة المنتصرين منهم آنذاك الرئيس الأمريكى «روزفلت» ، وكان التدخل الأمريكى في الحرب قد حسمها لصالح الحلفاء وكان هناك رئيس وزراء بريطانيا ، التى لم تعد عظمى، «ونستون تشرشل» لم يكن ممكنا تجاهله ولا تجاهل بلاده، وكان هناك كذلك الزعيم

السوفييتي المخيف «جوزيف ستالين»، كانوا هم قادة الحلفاء، نسقوا وحاربوا معا، ولعبت روسيا دورا بارزا في الصمود لجيش النازي، واندحر الجيش النازى الذى لم يكن يقهر أمام أسوار «ليننجراد» .

كتب طه حسين عن هذا الاجتماع المرتقب، والقضايا التى سيناقشها الزعماء، وكان قلقا من أن يهتموا فقط بالأوضاع داخل أوروبا ويتجاهلوا المنطقة، كتب مقالا يوم ٤ يناير ١٩٤٥ في جريدة «البلاغ» ثم كتب مقالا ثانيا بعد أسبوع، أى يوم ١١ يناير ، تعرض فيه من جديد لقضايا المنطقة ويحذر من أن يتم تجاهلها، يتساءل في مقاله «... لسنا ندري أيعرض الرؤساء في اجتماعهم المقبل لمشكلات الشرق الأوسط والأدنى أم يرجئونها إلى حين، ولكن المحقق أن هذه المشكلات في حاجة إلى أن تدرس وإلى أن يظهر فيها اتجاه الرأى عند الحلفاء» ، نحن هنا بإزاء كاتب يحمل كل قضايا الشرق الأوسط ، أى المنطقة العربية بأكملها وتركيا وإيران وحتى باكستان، لكنه بعد ذلك يخص مشكلتين بالتحديد، الأولى تتعلق بإيران، فقد كانت روسيا تسعى إلى أن تتواجد في المنطقة، وكان لها مطلب مباشر، هو أن يتواجد لها وزير

روسى مقيم فى «طهران» على غرار وزير الدولة البريطانى المقيم فى «القاهرة»، وكان معنى هذا أن تتعامل روسيا مع إيران وكأنها دولة احتلال ..!

المشكلة الثانية تتعلق بفلسطين والعالم العربى، وقد صاغها على هذا النحو «إن الرأى العام فى البلاد العربية كان مهتما أشد الاهتمام بمسألة فلسطين، ومن مصلحة العالم أن يطمئن هذا الرأى العام العربى وأن يعلم علم ثقة ويقين أن الحلفاء لا يريدون أن يخدعوه ولا أن يأخذوه على غرة ولا أن يختلسوا منه مسألة فلسطين اختلاسا ولا أن يضعوه أمام الأمر الواقع فى هذه المسألة ..» .. نحن بإزاء كاتب يدرك أن الرأى العام العربى، وليس المصرى وحده، قلق بشأن فلسطين، وأن العالم مطالب لمصلحته بأن يطمئن العرب، ويحدد أموراً ثلاثة يجب أن يتيقن منها العرب وهى أن الحلفاء لن يضعوه أمام الأمر الواقع ولن يختلسوا فلسطين وباختصار لن يخدع العرب ولن يؤخذوا غرة من جانب الحلفاء .. ويبدو أنه كان يرى بعمق ما سيقع.

حدث اجتماع «القرم» بين المنتصرين وانتهت الحرب، كما كان متوقعا، وفى غمرة أفراح أوروبا بالانتصار وعملية

تقسيم العالم بين المنتصرين، وإعادة رسم الخرائط فى أوروبا، يتوقف طه حسين فى «مسامرات الجيب» - عدد ١٤ أكتوبر ١٩٤٥ - عند قضايا الشرق، المقال حمل عنوان «مشكلة الشرق» تعرض فيه للعلاقة بين الغرب والشرق، وأن بلاد الشرق لم تعد الأمم ولا الدول الخاملة التى يستعمرها الغرب ويفرض سطوته وسلطانه عليها، بل إن للشرق مشاكله وهمومه وأيضا حقوقه مثل الغرب تماما، وفى منطقتنا توقف عند قضيتين هما بالترتيب: مشكلة فلسطين، والثانية تتعلق بما يسميه مشكلة الشمال الأفريقى ويعنى بها قضية الجزائر والمغرب وتونس وحق هذه البلاد فى الاستقلال وأن يجلو عنها الفرنسيون، ولن نتوقف عند هذه المشكلة فقد كتب عنها أكثر من مرة، رغم أن بعض خصومه يجزمون أنه كان يناصر الاستعمار الفرنسى فى الجزائر !!

القضية الفلسطينية عنده اخترعها الغرب اختراعا وهو المسئول عنها يقول «الغريب من أمر هذه المشكلة أنها مصطنعة فقد اخترعت اختراعا، وابتكرها الغرب من لاشئ، وكانت نتيجة لهذا التورط فى الوعود التى تبذل بغير حساب أثناء الحرب، وهو يقصد هنا وعد بلفور الصادر أثناء الحرب

العالمية الأولى، في نوفمبر ١٩١٧ ، حين أصدر لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا تصريحا بأن بريطانيا تنظر بعين العطف لمطالب اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وبدأ تنفيذ الوعد على أرض فلسطين، ومن يقرأ مذكرات «السير رونالد ستورس» (١) والذى عمل في فلسطين يدرك ما ترتب على هذا الوعد واهتمام بريطانيا بتنفيذه على الأرض.

ورأيه واضح ومحدد وهو «من الحق أن الذين اخترعوا هذه المشكلة يجب عليهم أن يحلوها وأن يريحوا العالم ويريحوا أنفسهم منها، فقد كانت فلسطين ومازالت عربية، فيجب أن تبقى فلسطين عربية، وأن تخلص لنفسها وأن تدبر أمرها كما تريد هي لا كما يريد هذا البلد أو ذاك من بلاد أوربا أمريكا ويؤكد على هذا المعنى مرة ثانية .. على هذا النحو وحده يجب أن تحل هذه المشكلة، بل يجب أن تلغى هذه المشكلة إلغاء لأنها مشكلة غير طبيعية، مشكلة جاءت من التكلف والتحكم، لا من الحقائق الواقعة، ولا من طبيعة الأشياء ..»

---

(١) قام بترجمتها د. رءوف عباس بعنوان «توجهات بريطانية - شرقية» الناشر المشروع القومي للترجمة سنة ٢٠٠٤ العدد ٥٤٠.

ويتحدث عن فلسطين ومكانتها قائلا : «عاش العالم قرونا وقرونا على أن فلسطين جزء طبيعى من العالم العربى، يعيش الناس فيه كما يعيشون فى أقطار البلاد العربية عيشة عادية لا عوج فيها ولا التواء».

فلسطين عربية ويجب أن تبقى كذلك، وعلى الغرب أن ينهيها كما اخترعها وبدأها .. وهذا لا يعنى أن طه حسين غافل عن مشكلة اليهود وما جرى لهم من مذابح وعنصرية، لكن هذه المشكلة لم يصنعها الفلسطينيون ولا يتحملون هم مسئوليتها - بل هى مشكلة أوروبية، خلقتها أوربا، وهى المطالبة بحلها وليس فلسطين يقول «.. فى الأرض مشكلة يهودية جاء من ظلم بعض البلاد الأوروبية وتحكمها، فهى مشكلة أوروبية يجب أن تحلها أوربا على حسابها هى ، لا على حساب غيرها من الناس، ولديه اقتراح محدد، يجب أن تتخذه أوربا هو «.. لأوربا مستعمرات واسعة وامبراطوريات هائلة تسع الملايين والملايين من اليهود، دون أن تجد فى ذلك ضيقا أو جهدا، فلتعتمد أوربا على هذه المستعمرات لحل هذه المشكلة، فهى التى ظلمت اليهود واضطرتهم للهجرة، وهى التى امتحنت العالم بهذه المشكلة المعقدة التى اخترعتها

اختراعا .. أوروبا هى التى مارست الاضطهاد على اليهود ، وكل العنصرية عندهم، وهى التى دفعتهم دفعا للهجرة والهروب منها .. ويعود إلى ما سبق أن أشار إليه وهو وعد بلفور وظروف الحرب العالمية الأولى «.. الحرب العالمية الأولى اخترعت هذه المشكلة الجديدة اختراعا، واستخرجت منه وهم الشيطان هذه الفكرة التى أحدثت الفرقة، وأفسدت الأمر بين الشرق والغرب إفسادا عظيما ..» وإلى اليوم فإن تدهور العلاقة بين الشرق والغرب، أو العالم العربى والغربى عموما سببه الجوهرى ما جرى وما يجرى فى فلسطين إلى اليوم .. من تهديد لها وقضاء على هويتها بل إلغاء وجودها بفعل الاحتلال الإسرائيلى.

ولم يتوقف طه حسين، بل عاد إلى نفس الموضوع بعد حوالى شهر، ففى مسامرات الجيب، يكتب - ٢٥ نوفمبر ١٩٤٥- مقالا بعنوان «فى الشرق» ، تناول فيه المشكلة الفلسطينية واعتبرها «المشكلة المعقدة» وهنا لا يوجه الاتهام إلى أوروبا كلها، كما فعل سابقا، بل يشير بأصبع الاتهام نحو بريطانيا والولايات المتحدة، وكم كان دقيقا فى ذلك، يقول «ليس الروس هم الذين يعقدون الأمر فى فلسطين، وليس

الفرنسيون هم الذين يعقدون الأمر في فلسطين، وإنما الذين يعقدون الأمر هم الإنجليز أنفسهم وحلفاؤهم الأمريكيون، هم خلقوا مشكلة فلسطين من لاشئ، وهم تبرعوا بما لا يملكون، وهم وعدوا بما لا يستطيعون تنفيذه، وهم أعطوا وعودا متناقضة للعرب واليهود جميعا، وصدقهم أولئك وهؤلاء، فلما حان وقت الوفاء، سقط في أيديهم ، ووقفوا موقف الحيرة الذي يقفونه، والذى يجر على الشرق الأدنى وعليهم شرا كثيرا..»

والواقع أن الإنجليز أعطوا الوعود، لكنهم التزموا بوعودهم لزعماء اليهود ورجال الحركة الصهيونية، ولم يلتزموا بأى وعد للعرب، وكذلك يفعل الأمريكيون إلى اليوم .

وفى نفس الفترة - نوفمبر ١٩٤٥- سألت مجلة (mages monde) د. طه حسين عن رأيه فى عالم ما بعد الحرب ، فقال «لقد انتهت الحرب بالقنبلة الذرية . لكنها تركت قنبلة زمنية هى فلسطين».

لم يكن جديدا اتهام د. طه حسين لبريطانيا، لكن الجديد منه كان إدخال الولايات المتحدة في الأمر وتحميلها المسئولية مع بريطانيا عما يجرى فى فلسطين، وهذا يكشف أن د. طه

كان متابعا جيدا للشأن السياسي الدولي، فمنذ اقتراب «روميل» من العلمين بدأت أمريكا تعمل على إزاحة بريطانيا من المنطقة كي تحل محلها، ولذا انشغلت بالمسألة الفلسطينية والهجرات اليهودية، وهناك ما يثبت أن بعض الاتجاهات فى الولايات المتحدة كانت تشجع هجرات اليهود إلى فلسطين ، حتى لا يتجهوا إلى الولايات المتحدة، وكانت إدارة الرئيس الأمريكى «روزفلت» مترددة بين المساندة العلنية للصهيونية ومشروعاتها فى فلسطين وإغضاب العرب ، خاصة ملك المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود .. وفى انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ١٩٤٤ التى فاز بها « هارى ترومان» صار الصوت اليهودى مؤثرا وموظفا لأغراض عملية تتعلق بمساندة المشروع الصهيونى فى فلسطين (١).

وسوف تلعب الولايات المتحدة ومعها بريطانيا وكذلك روسيا (الاتحاد السوفييتي) الدور الأبرز فيما بعد في صدور قرار التقسيم وإعلان قيام دولة إسرائيل .

---

(١) راجع فى ذلك : هنرى لورنس مسألة فلسطين ، الكتاب الرابع ، الفصل الثانى عشر، الناشر المركز القومى للترجمة ، ترجمة بشير السباعى ط١ ٢٠٠٧.

الفصل السابع :

وجود فلسطين

كانت فلسطين هما حاضرا فى أعمال جامعة الدول العربية منذ تأسيسها، لقد أعلن قيام الجامعة وفق بروتوكول الإسكندرية الصادر فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤، أى قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، وجاء فى البروتوكول أو بيان التأسيس ما يلى «ترى اللجنة أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية وأن حقوق العرب لا يمكن المساس بها من غير إضرار بالسلم والاستقرار فى العالم العربى .

كما ترى اللجنة أن التعهدات التى ارتبطت بها الدولة البريطانية والتى تقضى بوقف الهجرة اليهودية والمحافظة على الأراضى العربية والوصول إلى استقلال فلسطين هى من حقوق العرب الثابتة التى تكون المبادرة إلى تنفيذها خطوة نحو الهدف المطلوب ونحو استتباب السلم وتحقيق الاستقرار.

وتطلق اللجنة تأييدها لقضية عرب فلسطين بالعمل على تحقيق أمانيهم المشروعة وصون حقوقهم العادلة ..»

التعهدات التي يشير إليها البروتوكول هي تلك التي وردت في الكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا سنة ١٩٣٩، والواقع أن بريطانيا أصدرت هذا الكتاب لتهدئة الخواطر العربية كي يناصرها العرب في الحرب العالمية الثانية مع ألمانيا، لكنه صدر ولم تلتزم به بريطانيا ولم تنفذ ما تعهدت به من تلقاء نفسها .. وبخصوص القضية الفلسطينية كان البروتوكول واضحا في أنه يفرق بين اليهود عموما والصهيونية تحديدا، فقد جاء فيه أن اللجنة «ليست أقل تألما من أحد لما أصاب اليهود في أوروبا من الويلات والآلام على يد بعض الدول الدكتاتورية ، ولكن يجب ألا يخلط بين مسألة هؤلاء اليهود وبين الصهيونية، إذ ليس أشد ظلما وعدوانا من أن تحل مسألة يهود أوروبا بظلم آخر يقع على عرب فلسطين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم» ، وتوالت التصريحات الصادرة عن الجامعة العربية تؤكد الحق الفلسطيني والتمسك بهوية فلسطين العربية، وقد علق كثيرون في العالم العربي آمالا كبارا على الجامعة العربية خاصة فيما يتعلق بالشأن الفلسطيني، وكان أهل فلسطين الأكثر تعلقًا بالجامعة وانتظارا أن يأتي الحل عبرها.

طه حسين لا يهول كثيرا فى الآمال، ولا يبالغ فى التوقعات يطالب الجامعة بخطوات محددة، و يتهمها أنها لم تقم بما يجب عليها تجاه فلسطين، ففى «البلاغ» – عدد ٥ إبريل ١٩٤٥– يعلق فى مقال له على تصريحات صدرت عن الجامعة بخصوص استقلال فلسطين يقول : «قررت الجامعة أن فلسطين مستقلة شرعا ولكنها لم تقرر شيئا بشأن هذه الأمم الأخرى أمستقلة هى شرعا أم غير مستقلة. فهل من الحق أن فلسطين مستقلة شرعا وأن تونس ومراكش غير مستقلتين أم هل من الحق أن لتونس ومراكش وجودا مستقلا أقوى من الوجود المستقل لفلسطين لأنه فعلى، فهذان البلدان مستقلان يربطهما بفرنسا معاهدات الحماية وهما يزهدان فى هذه المعاهدات».

هو هنا ينبه إلى أن الوجود المستقل لفلسطين فى خطر، فإذا كانت مراكش (المغرب) وتونس يخضعان للحماية الفرنسية، فهذا يعنى ضمنا الاعتراف بالوجود المستقل لهما، وأن المشكلة فى الحماية الفرنسية عليهما وهذه يمكن أن تسقط ويتم التخلص منها ، أما فى فلسطين فالأمر جد مختلف، صحيح أن فلسطين تخضع للانتداب الإنجليزى،

وكان الانتداب على وشك الانتهاء، مما يعنى أن استقلال فلسطين من الناحية القانونية والسياسية مفروغ منه، لكن عمليا، لم يكن الأمر كذلك، فقد كان وجود فلسطين موضع خطر، لما تقوم به الجماعات الصهيونية على أرضها وتطالب علنا بإقامة دولة لهم على أرضها، ولا يناقش د. طه كثيرافى رأى الجامعة حول استقلال فلسطين، لكنه يرى أن الجامعة لم تتعامل فى المسألة الفلسطينية كما يتوقع هو وكما تمنى الكثير من أهالى فلسطين والمواطنين العرب، يقول فى مقال البلاغ «ونحن لا نشك فى استقلال فلسطين، بل نحن نعتقد أن الجامعة لم تعالج أمر فلسطين بما يستحق من العزم والحزم والصرامة وبما يلائم ما تضطرب به النفوس العربية فى جميع الأقطار».

ويصل طه حسين إلى أن يعلق وجود الجامعة العربية ذاته ومصيرها على ما تبذله فى سبيل فلسطين ويرى أن الجامعة أمامها طريق للجد .. تتجنب به الهزل، هكذا رأى ما تقوم به الجامعة، وكل الظروف تدفعها إلى ذلك «أن تجد الجامعة فى حل مسألة فلسطين حلا يقوم على الانصاف لا على التأجيل ولا على المراوغة».

ويعود إلى نفس الموضوع بعد خمسة شهور، منتقدا الجامعة العربية بحدة، ومتهما لها وللقائمين عليها، فهم لا يفعلون شيئا سوى اصدار التصريحات والبيانات فقط، يكتب في «مسامرات الجيب» - عدد ١٦ سبتمبر ١٩٤٥ - «ويخيل إلى أن الجامعة العربية تحسن إلى نفسها وإلى أعضائها إذا ألقت بينها وبين المرآة حجابا صفيقا ونظرت إلى الحوادث من حولها بدل أن تنظر إلى نفسها ..» ثم يقول «إن النتائج الطبيعية التي ستنتج عن إطالة النظر في المرآة وعن كثرة التحدث عن النفس والإعلان لما لا خير فيه، هي أن تتحكم حلقات النفوذ الأجنبي حول الشرق العربي، قد يجد منها مخلصا وأن تذهب قضية فلسطين ضحية للنظر في المرآة والتحدث عن النفس والاكتفاء بما ينشر هنا وهناك من كلام لا غناء عنه ..»

ويبدو أنه كان يقدم نبوءة ، فالنفوذ الأجنبي أمكن التخلص منه بعد الحرب العالمية الثانية، لكن قضية فلسطين تفاقمت، وذهبت ضحية النظر في المرآة، ويبدو أنه ليست الجامعة العربية وحدها التي نظرت في المرآة، بل معظم الأطراف العربية فعلوا الشيء نفسه، والمشكلة أننا لا ننظر

فى مرآة مستوية، تظهرنا بحجمنا الطبيعى، بل ننظر فى مرايا مقعرة ، تضخم الأصل وتبالغ فى الحجم الحقيقى، ونتصور أن المبالغة هى الحقيقة والأصل .. ومشكلة النظر فى المرآة ليس فى التضخيم فقط، بل إنه يدلنا على رؤية بقية الصورة والأطراف الأخرى، فلا نرى غير أنفسنا ولا نتكلم إلا لأنفسنا، ونتجاهل الواقع، وهذا هو حال القضية الفلسطينية إلى اليوم .

الفصل الثامن:

الجهـــــاد

هدأت الأمور بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتخلصت الشعوب من شبح الحرب وأخطارها، أقصد شعوب المنطقة، وحان وقت الحصول على النتائج، كانت مصر تتوقع أن تنال استقلالها كاملا، بعد أن أعلنت الحرب على ألمانيا وانضمت إلى الحلفاء ، وهو القرار الذى دفع رئيس الوزراء أحمد ماهر (باشا) حياته ثمنا له، وكانت الأحلام الوردية فى انتظار التحقق، وهكذا .. لكن القلق كان يسيطر على العرب بسبب ما يجرى فى فلسطين، فقد ازدادت أعمال العنف بها، وبدأ الحديث مجددا عن تقسيم فلسطين، وإقامة دولة يهودية على جزء من أرض فلسطين، وكان حديث التقسيم تردد فى الثلاثينيات وتأجل بسبب ثورة ١٩٣٦، ثم عاد للظهور منذ سنة ١٩٤٢، ولكن كان يناقش سرا فى أروقة الحلفاء طوال فترة الحرب،بعد الحرب وتحديدا فى عام ١٩٤٦ ظهر إلى العلن ، وبدا أنه أقرب إلى التحقق، فارتفع الاستنفار فى الجانب العربى، سواء على مستوى الشارع أو النخب

السياسية والثقافية العربية، ولم يكن طه حسين بعيدا عن هذا كله ، كان حاضرا ومتابعا بقوة ما يتردد فى بلاد الغرب، وما يدور في الشارع العربى.

في مقال له بالبلاغ - ١٠ مارس ١٩٤٦ - يكتب طه حسين عن فلسطين معتبرا أنها «مسرحا لهذا الصراع الهائل بين باطل الصهيونية وحق العرب وبين تسلط الاستعمار والطموح إلى الاستقلال..» ، وفى نفس السنة - ١٩٤٦ - كان الحديث عن القضية المصرية، أى جلاء بريطانيا عن مصر وحصولها على الاستقلال الكامل، وكانت الآراء والأفكار تترى فى هذا الموضوع ، فيكتب طه حسين عن الأضرار التى يمكن أن تلحق بمصر والمصريين من جراء السياسة البريطانية فى المنطقة، وتحديدا سياستها فى فلسطين، فيكتب فى «صوت الأمة» - ١٠ أغسطس ١٩٤٦ - منبها إلى تلك الأضرار والمخاطر ومصادرها .. يقول «وقد تأتى من إصرار البريطانيين على سياسة منكرة فى فلسطين لا يرضاها العرب لأنها لا تلائم حقوقهم ولا منافعهم، وقد يكون بين أمم الأرض وشعوبها من تدفعهم المروءة والنجدة إلى معونة هؤلاء العرب البائسين، وليس من الضرورى أن

تكون هذه الأمة هى روسيا التى لا يذكر اسمها إلا مقرونا بالشك مثيرا للخوف، ففى الأرض أمم أخرى قد تعطف على العرب وقد تفكر فى معونتهم إن أصر الإنجليز على سياسة اللعب بالحقوق والدماء والعقول فى فلسطين، وقد تكون هذه الأمم عربية لا أوروبية» .

وكانت هناك بعض الآراء والاتجاهات فى مصر والعالم العربى تعول على روسيا ، وأنها يمكن أن تساند عرب فلسطين أمام بريطانيا والجماعات الصهيونية، ويبدو أن طه حسين لم يكن ينتظر أو يتوقع من روسيا الكثير، كما لم يتوقع من أوروبا كذلك أن تساند العرب، هو كان يتوقع ويتمنى أن تكون المساندة عربية .. لا روسية ولا أوروبية، وهذا ما حدث بالضبط بعد ذلك، فما قامت به بريطانيا فى فلسطين من ظلم لأهلها وجور على حقوقهم، هب العرب للدفاع عن إخوانهم ودخلت المنطقة فى حروب و صراع لم يتوقف حتى هذه اللحظة .

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ صدر قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين ، دولة لليهود ودولة للعرب، وكان القرار صادما للشارع العربى كله، تكتب سوزان طه حسين

فى كتابها عن تلك اللحظة فى بيت وحياة طه حسين «ثم حدث التقسيم المريع لفلسطين، وأعقبته الحرب . لم تبق فرنسا حيادية كما وعدت فى موقفها من مسألة فلسطين وكان ذلك حزنا آخر يضاف إلى بقية الأحزان (١) وتضيف سوزان قائلة « حزنا لمؤنس أيضا الذى كان ينظر إلى الناس فى قاعات السينما وهو يتابع الجريدة السينمائية وهم يصفقون لليهود طويلا فى حين يصفرون للعرب (٢).

ويكتب طه حسين منفعلا بشدة، لم يكن منفعلا من قبل على هذا النحو، كتب مهاجما الأمم المتحدة، التى أصدرت قراراً هو الظلم بعينه، كان المقال فى مسامرات الجيب – ٧ ديسمبر ١٩٤٧ – بعد أسبوع من صدور قرار التقسيم مباشرة .. قال «لم أومن قط بهيئة الأمم المتحدة ولم آخذها قط مأخذ الجد، ولم أسمها قط بينى وبين نفسى ولا فيما بينى وبين الناس إلا هيئة الأمم المختلفة.» وأخذ يستعرض ماقامت به الهيئة وبالأحرى ما لم تقر به من الانصاف والعدل ..» ثم

(١) سوازن طه حسين: معك صفحة ١٥٤ . ترجمة بدر الدين عرودكى. مراجعة محمود أمين العالم . الناشر دار المعارف بمصر . طبعة ١٩٧٨

(٢) المرجع السابق . نفس الصفحة

كانت قضية فلسطين، فتبين العرب كما تبين المصريون أن العنب لا يجني من الشوك، وأن العدل لا ينتظر من الظلم. وأن الحق يلتمس من الباطل ، وأن الإنصاف لا يرجى من الذين أقاموا سياستهم علي البطش والعسف وعلى القهر والاستعلاء.»

لم يكن قرار التقسيم وحده سببا فى يأس طه حسين من الأمم المتحدة، لكن موقفها كذلك من مصر، فقد ذهب رئيس الوزراء المصرى محمود فهمى النقراشى إلى مجلس الأمن ليعرض القضية المصرية، استقلال مصر فخذله المجلس وخذله المصريون جميعا وانحازت الأمم المتحدة إلى بريطانيا الدولة المستعمرة والظالمة لمصر ولفلسطين وهو يلوم مصر.. ويلوم العرب ان عولوا على الهيئة الدولية يقول «أضاعت مصر جهودها بالاحتكام إلى مجلس الأمن، وأضاع العرب جهودهم بقبول الاحتكام إلى هيئة الأمم المتحدة.

والسؤال هنا.. ما العمل بعد كل ماجرى..؟

يجيب هو فى كلمة واحدة «الجهاد» والجهاد كما يطرحه واجب الحكومات ودورها، أى أنه ليس واجب الأفراد، وأولى هذا الجهاد مقاطعة هيئة الأمم المتحدة، باختصار تقوم به

الحكومة وأن ينطوى على حق مؤسسى.. يقوم به العرب جميعا.. يقول فى مقاله السابق «ومامن شك فى أن من الخير كل الخير أن يدعى المصريون إلى الجهاد ليفرغوا ما بينهم وبين الإنجليز، وأن يدعى العرب كلهم إلى الجهاد ليفرغوا ما بينهم وبين الغرب فى أمر فلسطين، ولكن الجهاد فرض على الحكومات لأنها أنشئت لتنهض بأعبائه وتقتحم عمرانه وأول هذا الجهاد أن تستقبل الحكومات من أمرها ما استدبرت، وأن تكف عن كل تعاون مع هذه الهيئة التى تفرض عليها الظلم فرضا.»

دعوة واضحة ومركزة أطلقها طه حسين دون تفصيل، وهذا ما يدعونا إلى القول إنه كان مساندا للخطوات التى قامت بها الحكومات العربية بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، حتى لو لم تحقق تلك الخطوات أهدافها ولم ترد الحق إلى الفلسطينيين ، وعموما ففى عام ١٩٥٦ يزداد موقفه وضوحا من حرب ١٩٤٨، ففى سنة ١٩٥٤ أصدرت سلسلة كتب للجميع «كتاب للصحفى والكاتب عميد الإمام، «الصلح مع إسرائيل» وهى سلسلة كانت تصدر عن «دار التحرير للطبع والنشر» ونجح الكتاب وصدرت منه أكثر من طبعة، ويستحق

هذا الكتاب أن يعاد نشره الآن، فهو يناقش قضية السلام مع إسرائيل، وكانت إسرائيل تملأ العالم فى ذلك الوقت صياحا بأنها تريد السلام بينما مصر ومعها الدول العربية ترفض ذلك، وناقش عميد الإمام هذه القضية بأناه وتدقيق فى كتابه المليء بالمعلومات والوقائع ، فضلا عن أن أسلوبه بسيط وسلس للغاية، وقرأ طه حسين هذا الكتاب وكتب مقالا يعلق عليه في جريدة الجمهورية، نشر يوم الاثنين - ٤ يونيه ١٩٥٦ - وكان أنور السادات هو المدير العام للجريدة وقت نشر المقال .. وفى هذا المقال يبدو رأى طه حسين واضحا جليا .

بدأ المقال هكذا «لم يكن من جناة تلك الحرب التي سيندى لها جبين الإنسانية المتحضرة فى يوم من الأيام القريبة، ولكنه اصطلى حرها وبلى مرها، كما بلت مئات كثيرة من ألوف الناس الذين لا ذنب لهم إلا أنهم عرب لم تتح لهم وسائل الزود عن حياضهم والاحتفاظ بحقهم فى الحياة الكريمة التى يأذن الله بأنه قد أسبغ نعمتها على الناس جميعا .. وقصر جيرانهم من العرب أو أخطأهم التوفيق حين خفوا لنجدتهم فلم يبلغوا مما أرادوا شيئا ولم يحفظوا على إخوانهم المضيعين من حقهم في الحياة الكريمة قليلا ولا كثيرا ..»

الحرب التى يشير إليها طه حسين هى حرب ١٩٤٨ ، وما جرى للفلسطينيين خلالها وما تعرضت له الجيوش العربية التى قاتلت على أرضها من عدم تحقيق أهدافها، وطرح عميد الإمام فى كتابه قضية «الصلح» ، لم تكن كلمة السلام هى الدارجة وقتها، ومطلب العرب لتحقيق الصلح هو التزام إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة وفى مقدمتها قرار التقسيم، وإعادة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم عما جرى لهم، وتدويل مدينة القدس، ولم تكن إسرائيل مستعدة لشئ من هذا وهى كذلك إلى اليوم، كانت قد ضمت نصف القدس إليها وتجاوزت قرار التقسيم واحتلت من الأراضى الفلسطينية ضعف ما أقره لها القرار .. كان العرب يعلقون الاعتراف بها على أن تلتزم هى بتلك القرارات، ولم يكن لأنهم أرادوا إلقاءها فى البحر كما ردد الإعلام الإسرائيلى .. ويتحدث طه حسين عن الكتاب والكاتب فى هذه الجزئية ويرى أنه نجح فى أن يقنع العقول «بأن الصلح مع الظالمين إجرام مادام ظلمهم قائما ويشعر القلوب بأن من الخزى أن ترضى وقلوب أخرى لإخوان لها تتحرق حزنا وتتشق لوعة وألما، وأقر فى الضمائر أن الرضى بقضية فلسطين وظلم إسرائيل وأعوانها ، إنما هو

مشاركة فى الإثم ورضى بما لا يرضى به إلا الذين برئوا من الإنسانية واستحقوا خزى الدنيا والآخرة جميعا، ويتحدث عما قدمه الكتاب من تحليل وتتبع لنشاط الصهيونيين من اليهود خاصة . ويردها إلى «أصولها من العهد القديم والعهد الجديد» وكذلك فإنه «يصور براعتهم وسعة حيلتهم فى السعى والدأب وفى الكيد والمكر وفى شراء العقول والضمائر بالمال، حين يحتاجون إلى شرائها بالمال، وفى استغلال سلطان المال على الحكومات إلى أقصى حد، وفى انتهاز الفرص والانتفاع بما يصيبهم من المظالم وما ينصب عليهم من الآلام، وفى الاستزادة من المظالم والآلام لاستثارة الشفقة والرحمة حينا لترويع الضمائر وتقريعها حينا آخر» .

ويعترف طه حسين بأن الكتاب لم يضف إليه شيئا، فقط ذكره بالآلام التى وقعت لأهالى فلسطين «.. كنت أعرف من قصة فلسطين ما يعرفه أمثالى من الناس وكنت أجد من الرأى لأهل فلسطين ما يجد أمثالى من الناس ولكنى على ذلك أقرأ هذا الكتاب وأقرأ وأقرأ فلا أمل مرارته وإنما أستحبها..» وينهى د. طه حسين مقاله بتساؤل مهم «لست أدرى أأهنئ الأستاذ عميد الإمام بهذا الكتاب الرائع

البارع، أم أستاني بالتهنئة لعل الله أن يتيح لنا يوما من الأيام نهنئه ونهنئ إخوانه فيه بما هو أبلغ وأشد روعة من هذا الكتاب، بالنصر الذى يرد على الفلسطينيين حقهم ويرد على العرب كرامتهم ويعصم الإنسانية من هذا الخزى البغيض».

***

منذ صدور قرار التقسيم، لم يغير طه حسين رأيه فى الأمم المتحدة ورؤيته لها، ويصر على هذا الموقف ، ففى سنة ١٩٥٥ كان العالم يحتفل في شهر أكتوبر بذكرى تأسيس الأمم المتحدة، ولم يكن هو سعيدا بالاحتفال ولا الهيئة التى يحتفل بها تستحق الاحتفال ، وقرر أن يتناول هذا الموضوع، فكتب بجريدة الجمهورية -٢٨ أكتوبر ١٩٥٥- مقالا بعنوان «المولد»، وكانت الجمهورية تنشر له مقالا بانتظام كل يوم اثنين ، واختيار هذا العنوان سببه أن تصادف موعد الاحتفال بالأمم المتحدة مع موعد احتفال المسلمين بالمولد النبوى الشريف، وقارن بين ما قدمه نبى الإسلام للإنسانية كلها من سلام وأمان وتحضر وما تقدمه الأمم المتحدة من رعب وخوف، يقول فى مقاله «لم يعرف الناس قط هيئة أنشئت

لتأمين الشـــعوب فأخافتها ومـــلأت قلوبها ذعرا وروعا كهيئة الأمم المتحدة التى لم يكد إنشاؤها يتم حتى شبت الحرب فى أطراف الأرض فـسـفكت الدمـاء بغـيـر حـسـاب وأزهـقت النفوس فى غير اكتراث، وروع الآمنون وأصبح الضعفاء نهباً مباحا للأقوياء، ويكفى أن نذكر فلسطين وأهلها الذين كانوا آمنـــين وادعين لايـؤذون أحـدا ولا يتـمنون له إلا أن يكف عنهم الأذى، فشردوا فى الأرض كل تشرد واضطروا إلى ما يشقون به الآن من البؤس واليأس والحرمان والحياة غرباء فى غير وطنهم، يعيشون على المعونة تأتيهم من هنا وهناك، قد ألغـيت كرامتهم إلغاء، وهيئة الأمم المتحدة تنظر إلى ذلك لا تكاد تأبه له أو تلقى إليه بالا..»

بعد هذا المقال بشهور قليلة يعود إلى نفس القضية ولكن فى سياق آخر، فقد أغارت إسرائيل على سوريا وتقدمت سوريا بشكوى إلى الأمم المتحدة واجتمع مجلس الأمن لمناقشة شكوى سوريا، لكن المجلس اكتفى بإدانة إسرائيل، ببعض الكلمات دون تعويض سوريا عن خسائرها، رغم أن هناك مواطنين سوريين قتلوا وبعضهم جرح .. فيكتب د. طه مقالا بالجمهورية - ٢٥ يناير ١٩٥٦ - بعنوان بليغ هو

«اللاعبون بالنفوس» .. عاد فيه إلى القضية الأولى وهى إنشاء إسرائيل بقرار من الأمم المتحدة ومساندة دول الغرب، حيث يسمى إسرائيل «لعبة الكبار» .. يقول : «اجتمع هذا المجلس الخطير وعرضت عليه قضية من الخزى للإنسانية المتحضرة أن توجد، ومن الخزى للإنسانية المتحضرة أن تكون موضوع أخذ ورد وأن يجرى فيها خصام أو جدال. فقد أراد الكبار أن يلعبوا بالصغار فأزعجوا الآمنين الوادعين عما كانوا فيه من أمن ودعة، وسلطوا عليهم لعبتهم تسفك دماءهم وتذبح أبناءهم وتخرجهم من ديارهم وتشردهم فى الأرض كل تشرد، وجعلوا ينظرون إليها وهى تفعل ذلك بمعونتهم وتأييدهم فرحين مبتهجين . قد أنشأوا دولة من لا شئ وحكموها في النفوس والدماء والأموال وفرضوها على التاريخ فرضا ثم جعلوا يدللونها حتى استحبت الطغيان وكلفت باستباحة ما لا يباح وانتهاك الحرمات وإهدار الحقوق .

ويستعرض طه حسين ما قامت به إسرائيل تجاه سوريا والخسائر التى وقعت من جراء غارتها، وتجاهل مجلس الأمن لكل هذا «قال قائل لمجلس الأمن من أعضائه فلا أقل من أن

تؤخذ إسرائيل بتعويض سوريا عمن قتل من أبنائها وما ضيع من أموالها، فليس فى ذلك عقوبة ولكن فيه شيئا من إنصاف، ولكن المجلس أبى وبح فى الإباء، ووضع أعضاؤه القضاة أصابعهم فى آذانهم، وقالوا حسبنا أن ندين إسرائيل، فإدانتها شئ عظيم، ثم تفرق مجلس الأمن بعد أن أذن للعدل فى أن يعود إلى مضجعه لينام ويغرق فى النوم حتى تتاح له اليقظة فى يوم من الأيام أولا تتاح له آخر الدهر، فأما النفوس التى أزهقت والدماء التى أريقت والأسر التى فجعت والحقوق التى أهدرت فأدوات للعب لا تنقص عن ذلك ولا تزيد».

لم يتوقف طه حسين عند موقف الأمم المتحدة من فلسطين فقط، لكنه تحدث أحاديث مطولة عن موقفها كذلك مما تقوم به فرنسا فى الجزائر، وكانت الثورة الجزائرية مشتعلة، وكان الفرنسيون يقتلون الجزائريين ويضربونهم ومجلس الأمن مجرد متفرج، لذا لم يكن غريبا أن ينهى طه حسين مقاله اللاعبون بالنفوس» بهذا التساؤل المرير الذى لايزال صالحا ومطروحا إلى يومنا هذا «ألا يزال العرب يعتمدون على اللاعبين بالنفوس لإنصاف المظلومين، وألم يأن لهم أن

ينصفوا أنفسهم بأنفسهم بعد أن أسفر الصبح لذى عينين...»
وهو نفس المعنى الذى خلص إليه، فى مقال سابق له بالجمهورية أيضا -١١ ديسمبر ١٩٥٣ - حيث أعلن أنه من اللحظة الأولى لم يقتنع بالأمم المتحدة «لم أؤمن قط بهيئة الأمم المتحدة التى أنشئت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وأحيطت بألوان لا تحصى من إعلان الأقوياء وأوهام الضعفاء، وآمال الذين يحبون المثل العليا ويتمنون أن يتحقق العدل فى الأرض ويشيع بين الناس فيأمن الخائف، ويطمئن القلق، وتستقر القلوب بين الجنوب ، وتذكره تلك الهيئة بهيئة سابقة هى «عصبة الأمم» التى نشأت بعد الحرب العالمية الأولى .. ويستعرض ما حدث للهيئتين وكيف أن الاستعمار ظل رغم وجودهما، وظلم الأقوياء للضعفاء ازداد .. وينهى بالقول «وإذن فليس أمام الأمم المغلوبة والشعوب المظلومة إلا خطة واحدة لا ثانية لها، صورها الشاعر العربى القديم أروع تصوير وأبرعه في بيته الخالد :

ومن لم يزد عن حوض يلزمه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

والخير كل الخير أن نزود عن حوضنا بسلاحنا وألا نظلم

أحدا ولا نرضى أن يظلمنا أحد.

والحقيقة أن د. طه حسين ، لم يترك فرصة أمامه كى يعلن إدانته للأمم المتحدة ودول الغرب، تحديدا بريطانيا والولايات المتحدة على دورهما فى انتهاك حقوق الفلسطينيين .. وهو كان يرى أن إسرائيل لعبة الغرب وتحديدا «لعبة الاستعمار» .. فى مقال له بعنوان «حيرة» ، الجمهورية ١٨ إبريل ١٩٥٦ ، يتحدث عن غرور الغرب الذى أفسد عليه أمره وجعله يسرف على نفسه وعلى الناس فى سفك الدماء وإزهاق النفوس وإنفاق الأموال فى غير طائل .. ومن نتائج ذلك الغرور ما يلى «أنشأ فى هذه الرقعة من الأرض لعبته المصطنعة التى سماها إسرائيل على غير أساس معقول وبعد أن فات وقت الاستعمار وإجلاء الناس عن أوطانهم ليسكنها غيرهم، ظن أن ما أتيح له فى أواخر القرون الوسطى من استعمار أمريكا وآسيا وإفريقيا مازال متاحا له فى القرن العشرين وأنه يستطيع فى هذه الأيام أن يجلى العرب عن فلسطين، كما أجلى أو أفنى أو أذاب أهل أمريكا منذ قرون» ثم يضيف قائلا «انظر إلى الغرب يمنح لعبته إسرائيل عونا كاملا يمنحها المال بغير حساب، ويرسل إليها السلاح فى غير احتياط ويغرس أبناءها بالتطوع فى جيشها، فإذا تقدمت مصر أو غير مصر من البلاد العربية لتشترى السلاح منه لتدفع عن نفسها غائلة هذا الشر الذى وطن فى أرضها توطينا راغ منها كما يروغ الثعلب فوعد وأخلف الوعد، أو رفض أو خرج بالصمت عن لا ونعم، كما يقول الشاعر القديم:

موقف واضح ومباشر يرى أصول المسألة وجذورها ..

الفصل التاسع :

ليس هناك حضارة إسرائيلية

في سنة ١٩٦٤ توقفت علاقة د. طه حسين المنتظمة بالكتابة للصحف، وكانت هذه العلاقة بدأت في شبابه الباكر وقبل أن يسافر إلى فرنسا لنيل الدكتوراه، وتواصلت بعد عودته، حتى حينما كان يسافر صيفا إلى أوروبا، فرنسا أو إيطاليا غالبا، كان يبعث بمقالاته من هناك، وهذا ما يتيح للباحث أن يتتبع آراءه في كثير من القضايا السياسية والوطنية .

جاء عام ١٩٦٤ بحادثين ترتب عليهما انقطاع تلك العلاقة:

الأول قرار غاشم من رئيس تحرير «الجمهورية» آنذاك بإنهاء تعاقد الجريدة مع طه حسين، أي فصله، بدعوى بيروقراطية سخيفة وهي أنه لا يحضر بانتظام إلى الجريدة، وكان د. طه يكتب بانتظام في جريدة الجمهورية منذ منتصف الخمسينيات، وخسرت «الجمهورية» كاتبا في قامة طه حسين.

الثاني : تعرض طه حسين لجراحة قاسية بالعمود الفقري، أدت إلى وهن شديد في صحته، وصارت الحركة بالنسبة له

صعبة، فقل خروجه من البيت وندرت مشاركاته الثقافية العامة ، وفوق ذلك، كان أتم الخامسة والسبعين من العمر .. لكن صلاته الثقافية لم تتوقف، ونعرف آراءه عبر الحوارات الثقافية والصحافية وما كان ينقله عنه تلاميذه ومحبوه، وفى تلك المرحلة من العمر ومن التوقف عن الكتابة تقع كارثة الخامس من يونيه ١٩٦٧، ونجد أفضل وأدق توصيف لحاله أنذاك، لدى زوجته سوزان، نصفه الآخر .. نصف الروح والفكر ، فى كتابها تقول «كنا فى جاردونيه يوم الخامس من يونيه ١٩٦٧، وعلمنا بالاعتداء الإسرائيلى، وكانت الأيام التى تلت الكارثة مفعمة بالقلق، فلم نكن نلتقط إذاعة مصر، وكنا ، بطبيعة الحال بلا خبر عن أمينة وأسرتها الذين كانوا فى القاهرة (١) ، وتضيف سوزان: أما الإذاعات الأجنبية فقد كانت تنقل لنا تفاصيل مرعبة عما جرى فى سيناء ، ولم تكن الصحف والإذاعات موضوعية فيما كانت تنقله ، بل لقد كانت أحيانا مزورة كارهة بحيث كان يتضاعف تمزقنا (٢) ، ثم تتعرض مصد لحرب الاستنزاف وما جرى فيها من غارات إسرائيلية وحشية على المدينين والعديد من النشآت كما

---

(١) سوزان طه حسين «معك» ص٢٥٩ ، الناشر دار المعارف ١٩٧٩.

(٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة

حدث في مصنع أبوزعبل ومدرسة بحر البقر، وتقول «كنا نشعر بالحزن العميق إزاء عدم فهم العالم الغربى كله تقريبا لما يجرى خلال عدة سنوات» (٣) .

يعنينا فى كل ما ذكرته سوزان طه حسين الجزء الأخير، حول الشعور بالحزن، الذى كان ينتاب د. طه وهي معه ، لأن الغرب كله لم يكن يفهم ما يجرى في المنطقة طوال سنوات بخصوص إسرائيل وما تقوم به فى المنطقة ودورها .

بعد انتهاء حرب يونيه ١٩٦٧، بدأت التساؤلات حول ما جرى .. كيف جرى ولماذا وإلى أين .. ؟ وتعددت محاولات الإجابة، كان هناك من رأى أننا ابتعدنا عن الدين وعن الله، ولذا قرروا العودة ثانية إلى الدين والتفكير الدينى فكانت الاتجاهات الأصولية والسلفية التى انتشرت بيننا اليوم انتشارا شديدا .. وكان هناك من ذهب إلى أن افتقاد النظام الناصرى إلى الديمقراطية والحريات السياسية كان السبب المباشر، وأنه لابد من عودة الأحزاب السياسية مجددا، ولذا وجدنا الدولة تبدأ فى الإفراج عن كيثر من المعتقلين فى قضايا سياسية ، وقيل إن الرئيس عبد الناصر نفسه بدأ

---

(٣) نفس الصفحة ، المرجع السابق

يفكر فى إعادة الأحزاب السياسية من جديد، لكن كان هناك رأى قال به عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين القوميين، وهو أن إسرائيل تغلبت علينا فى ١٩٦٧، كما تغلبت من قبل فى حرب ١٩٤٨، لأزمة حضارية نعيشها نحن، وأن هناك فارقا حضاريا بيننا وبينهم ، متعدد الجوانب، فى التعليم والبحث العلمى، فى الثقافة والإبداع، وفى النظم الاجتماعية .

وعلى صفحات مجلة الإذاعة والتليفزيون أجرى الناقد سامح كريم حوارا مع د. طه حسين، سأله فيه حول هذه القضية، وكان الحوار فرصة ليعيد ويكرر إعلان موقفه «لا توجد حضارة لإسرائيل حتى نواجهها، وبالتالى لا توجد لها حضارة تصارعنا ، وإنما يوجد استخدام واستغلال من جماعة اليهود الوافدين من الغرب المستغلين لحضارة هذا الغرب، وعلينا بالإسراع فى خطانا التى بدأناها من قبل أن توجد إسرائيل أو حتى الغرب الذي زرعها بيننا لنقرب الشقة بيننا وبين حركة النهضة التي نشأت فى هذا الغرب منذ الثورة الصناعية، والتى استغلتها الجماعات اليهودية التى كونت إسرائيل، وكان استخدامها واستغلالها لهذه النهضة متقنا إلى الدرجة التى جعلت البعض ينسبون هذه النهضة إليها، علينا أن نفعل ذلك «دون أن يتطرق إلى أذهاننا أن

هناك حضارة إسرائيلية تواجهنا، بل هى حضارة الغرب أولا وأخيرا» (١) ويرى د. طه أن «المواجهة أو الصراع بين العرب وإسرائيل ليست مواجهة بين أمتين، أو مواكبة بين حضارتين، ولكنها مواجهة بين الأمة العربية، وبين حركة الصهيونية العالمية» (٢)

ويضع د. طه حسين يده على دوافع الصراع الحقيقية «الصراع الراهن بين العرب وإسرائيل سببه أن إسرائيل تريد أن تتوسع فى الأرض على حساب العرب (٣) وحول السلام فى المنطقة بين إسرائيل والعرب قال «إسرائيل لا تريد السلام مثلنا ولا تطيقه، ولا تريد حدوداً آمنة على ما تدعى، لأنها لا تريد أن تحد بل تريد أن تمتد .. إن إسرائيل لا تستطيع قبول السلام، لأن معنى قبولها للسلام انتهاء للحلم الصهيونى والحركة الصهيونية (٤) ويقول كذلك «اليهود يعلنون باستمرار أن فلسطين كانت وطنهم منذ آلاف السنين ، ولقد مضت آلاف السنين على رحلة قصيرة خاطفة من وجودهم فى فلسطين، ثم إننى أتساءل : هل صحيح أن اليهود الذين يعيشون الآن هم بنو إسرائيل» (٥).

---

(١) راجع سامح كريم : تنوير طه حسين، الناشر كتاب اليوم – عدد ٥٢٧– يونيو ٢٠٠٩. ص ١٢٢

(٢) الصفحة السابقة

(٣) المرجع السابق ص١٢١

(٤) المرجع السابق ص١٢٢

(٥) المرجع السابق ص١٢٢

للإنصاف فإن الذين ذهبوا إلى أن مشكلتنا تكمن بالأساس فى الأزمة الحضارية، لم يكن يقولون ذلك بناء على أن هناك حضارة إسرائيلية خاصة، فليس هناك - بالفعل - ما يمكن أن نسميه حضارة إسرائيلية ، ولكن هناك حضارة غربية «أوروبية - أمريكية»، حققت نهوضا وتقدما ، وإسرائيل فى النهاية هي نتاج لتلك الحضارة وجزء منها، تلك الحضارة هى التى خلقت المشكلة اليهودية في أوروبا، هتلر والنازية نتاج كامل للحضارة الغربية بكل ما تنطوى عليه من تناقضات، وما فعله هتلر مع اليهود، كان مشكلة أوروبية أى غربية، ونزح اليهود ونقلهم إلى فلسطين كان قرارا غربيا وفكرة غربية كذلك، الصهيونية نفسها نتاج غربى، ولأن إسرائيل كذلك، فهى لم تنفصل عن الغرب، ومن ثم تعود القضية فى النهاية، وفق هذا الفهم إلى أنها قضية صراع الحضارة الغربية الأوروبية ، بوجهها الاستعمارى حينا والاستيطانى حينا آخر مع بلاد المنطقة .

الفصل العاشر:

العميد والكاتب المصرى

عمل طه حسين رئيسا للتحرير فى حياته مرتين :الأولى حين رأس تحرير مجلة الكاتب المصرى ، والثانية عندما عين رئيسا لتحرير جريدة «الجمهورية» ، فى الأولى كان رئيسا للتحرير ، فعلاً ، يمارس مهام العمل ، ويصدر المجلة وفى الثانية كان رئيساً «شرفياً» للتحرير ، إن صحت التسمية ، فلم يمارس مهام هذا الموقع ، فقط كان يكتب مقالاً أسبوعياً ، وربما أرادت الدولة تكريمه بهذا اللقب ، ولعلها أرادت أن تمنح الجريدة الوليدة وقتها قدرا من الثقل الثقافى والفكرى ، وقد انتهت رئاسته للتحرير فى المرتين بطريقة غير ودية ، فى الأولى فرض عليه إغلاق المجلة وفى الثانية «فصل» بطريقة لا تليق مع كاتب مهما بلغ حجمه ، ناهيك عن أن يكون طه حسين.

وبين المجلات الثقافية العربية لن تجد مجلة تعرضت للهجوم وللانتقاد ، حتى قبل أن تصدر ، كما تعرضت «الكاتب المصرى» ولن تجد مجلة أكثر إخلاصا للثقافة وللأدب العربى من «الكاتب المصرى» ورغم ذلك لم يتوقف الهجوم

عليها حتى بعد أن توقفت عن الصدور.

مصدر الهجوم أن ممولى المجلة ومؤسسيها هم مجموعة من أسرة «هرارى» ، وهى واحدة من الأسر اليهودية المصرية ذات الثراء ، وتعود هذه الأسرة إلى فيكتور هرارى (باشا) الذى تولى الخزانة العامة في عهد الخديو اسماعيل، ولم يعرف عن هذه الأسرة ميول صهيونية ، لا وقت تأسيس «الكاتب المصرى» ، ولا حتى بعد خروج اليهود من مصر ، وقد توقف الناقد الراحل على شلش عند ذكر هذه الأسرة فى رسالة بعث بها حاييم وايزمان إلى زوجته فى لندن من القاهرة وكان وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية قد زار مصر فى مارس سنة ١٩١٨ على رأس وفد من الحركة الصهيونية ، ليعبر منها إلى فلسطين ، والتقى وايزمان بعدد من أعيان وأثرياء اليهود فى مصر ، خاصة أسرة هرارى ، وأسف أنه لم يجد منهم حماسا لوعد بلفور ومسالة الوطن القومي لليهود فى فلسطين (١) وهذا يؤكد أن مجموعة ممولى

(١) د. على شلش : طه حسين مطلوب حيا وميتا الناشر دار المعارف للطباعة والنشر . تونس . سنة ٢٠٠٦

الكاتب المصرى لم تكن مجموعة صهيونية» الهوى ، والواقع أن شركة الكاتب المصرى كانت تعمل فى الورق والأدوات الكتابية وقررت أن تتوسع فى نشاطها الثقافى بإصدار مجلة ثقافية شهرية بنفس الاسم ، وكما هو شائع، لكن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن إنشاء المجلة كان فكرة طه حسين ، وهم الذين مولوها (١) .

صدر العدد الأول من المجلة فى أكتوبر ١٩٤٥ ، وقبل الصدور بدأ الهجوم عليها ، فى الصحافة المصرية واللبنانية ، ويبدو أن الهجوم ومن ثم الاتهام صار شائعا ، فنجد مجلة «الاثنين فى العدد ٥٩١ الصادر بتاريخ ١٨ اكتوبر ١٩٤٥ (٢) تجرى حواراً مع طه حسين ، كان بالمجلة باب أسبوعى يحمل عنوانا هو «يقولون عنك فماذا تقول ؟» وكان محرر هذا الباب يستضيف السياسين ورجال الأحزاب - غالبا - ويواجههم بما يدور حولهم وما يقال عنهم فى الأوساط السياسية

(١) سامح كريم : طه حسين فكر متجدد الناشر الدار المصرية اللبنانية سنة ٢٠٠٤ ص ٤٥ و ٤٦ .

(٢) مجلة الاثنين ، كانت تصدرها مؤسسة دار الهلال ، وكان من كتابها د. حسين مؤنس ، د. زكى نجيب محمود ، د. أحمد زكى وفكرى اباظة وغيرهم ، وقد توقفت عن الصدور سنة ١٩٥٢.

والحزبية أوما يتردد حولهم فى الشارع ولدى الرأى العام لكن فى عدد ٨ اكتوبر ، كان الضيف هو طه حسين ، وحمل الحوار عنوانا خاصا، هو «الاثنين تستجوب الدكتور طه حسين بك والحوار أوالاستجواب تناول موقف د. طه حسين من الحياة الحزبية وغيرها، وكان السؤال الثالث الموجه إليه حول مجلة «الكاتب المصرى» ، وكان على النحو التالى : يقولون عنك أنك تعمل على مساعدة الصهيونية .. فماذا تقول ؟ ومن الاجابة يتضح لنا أن الحوار أجرى معه قبل أكثر من أسبوع على النشر.. أجاب قائلاً «إن مجلات دار الهلال آخر من يجوز لها إلقاء مثل هذا السؤال ، فهى تعرفنى حق المعرفة ، وقد كتبت فيها من نشأتى حتى الآن».

كانت صلة طه حسن بمطبوعات دارالهلال قديمة وعميقة، فقد نشرت له مجلة «الهلال» كتاب الأيام على حلقات فى أعدادها، منذ نهاية العشرينيات.. وهو كذلك كان طه حسين يكتب مقالات بين حين وآخر فى «الهلال»، بالإضافة إلى ذلك كان صديقا لمجلة «المصور» بين حين وآخر أحاديث معه، وتتابع أخباره، ومشاركاً فى ندواتها، ويمدها بآرائه السياسية.. وهكذا كانت صلته بسائر مطبوعات «دار الهلال»

، وهو معروف جيدا للعاملين بها وللقائمين عليها، ويعرفون ميوله جيدا .

ويضيف طه حسين «وليت الذين يذيعون مثل هذا الكلام الفارغ يستطيعون أن يبلوا فى خدمة العروبة مثلما أبليت ، وليس أدل على أنى أساعد الصهيونية من أنى أحيى الأدب العربى القديم فأنشر ديوان أبى تمام وما كتب عليه من الشروح فى العصور الأولى، وأنشر روائع الأدب العربى للجاحظ وأبى هلال العسكرى وغيرها ، وأنشر أشياء أخرى خطيرة تتصل بعلوم القرآن الكريم ، فأى مساعدة للصهيونية أقدس من هذه المساعدة؟

ويستطرد طه :أما مجلة الكاتب المصرى التى أسست فيما يقال ، لمساعدة الصهيونية فستكون فى أيدى الناس حين يظهر هذا العدد من الاثنين - وسيقرءون ما فيها ، ويستوثقون من أنها مجلة أقل ما توصف به أنها لسان صادق للأدب العربى الرفيع» .

ورغم هذا الرد الواضح فإن اللغط لم يتوقف ، فقد نشرت «الدفاع الفلسطينية (١) رسالة من الدكتور طه حسين وقعها

(١) جريدة فلسطينية كانت تصدر فى مدينة «يافا» بفلسطين.

في ١٥ اكتوبر ١٩٤٤ ، إلى الكاتب الفلسطيني خليل شطارة، كان شطارة قد بعث إلى د. طه يستفسر منه عما قرأه في مجلة الصياد اللبنانية من أن طه حسين «تشيع للصهيونية» .. وأعاد د. طه شرح قصة الكتاب المصرى من بدايتها «هى مجلة مصرية عربية ظهر العدد الأول من أعدادها ، وإنى أتحدى من شاء أن يجد في هذا العدد ، وفي الأعداد التي تليه ، إشارة للصهيونية أو تأييدا لها . ومن يدرى ؟ لعل قراء هذه المجلة يبهتون في يوم من الأيام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية وهجوما عنيفا على ظلمها ، ودفاعا عن العرب في وطنهم فلسطين » وقال أيضاً « .. وخلاصة هذه القضية أن سبعة من اليهود المصريين قد اشتركوا في عمل تجارى صرف ، قوامه نشر الأدب العربى قديمه وحديثه ، ونقل الجيد من الآداب الغربية إلى لغة الضاد . وطلبوا إلى أن أكون مشيرهم في ذلك فقبلت ، بعد أن استقصيت ما يتصل ، ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد(١)

نعرف أن طه حسين كان يميز بوضوح بين اليهود

---

(١) الرسالة بكاملها منشورة في كتاب د. على شلش «طه حسين مطلوب حيا وميتا» ص ٨٠ و ٨١.

والصهيونية ، وأنه كان ينتبه لما تعنيه وتمثله الصهيونية من خطر على فلسطين وعلى العرب ، وأنه عمل مع آل هرارى باعتبارهم مواطنين مصريين فى المقام الأول، وإن كانت ديانتهم اليهودية ، وأنه بحث وتقصى قبل أن يقبل العمل وتأكد من أنه لا صلة لهم بالصهيونية وكان الرجل مندهشاً من هذه التساؤلات وذلك اللغط، فحياته معروفة ونشاطه بارز وهذا النشاط يؤكد أن الرجل اختياراته وطنية فى المقام الأول .. يقول لخليل شطارة «أحب أن تطمئن إلى أنى ، وقد أنفقت حياتى كلها فى خدمة الأدب العربى لا يمكن أن أنحرف عن حب العرب وخدمتهم فى حياتهم القديمة فأما الشائعات التى حدثتنى عنها فإن مصدرها المنافسة التجارية من جهة ، والضغينة السياسية من جهة ثانية، والحسد البغيض من جهة ثالثة (١).

وبعد صدور «الكاتب المصرى» بأسبوعين ، نشرت مجلة آخر ساعة - ١٤ أكتوبر عدد ١٩٤٥ - حواراً مع د. طه حسين ، وذهبت آخر ساعة إلى قلب المشكلة مباشرة ، فى

(١) راجع د. على شلش : المرجع سابق . ص ٨٠.

سؤالين متتالين الأول هو : ماذا ترى فى مسألة فلسطين؟

وأجاب قائلاً «أرى أنها مشكلة أنشأها الظلم ويجب أن يأتى العدل ، والعدل أن فلسطين قطر عربى يجب أن يصبح دولة عربية مستقلة عضواً فى جامعة الدول العربية كمصر والعراق وغيرها من الدول المشتركة فى هذه الجامعة ، وكل حل غير هذا ظلم يجب أن تقاومه الحكومات والشعوب العربية بكل ما تملك من قوة.

ثم سئل طه حسين ما رأيك فى بيع أراضى فلسطين لليهود؟

وكان رده : «أرى أنه خطر يجب أن تتعاون الدول العربية على تمكين عرب فلسطين من مقاومته».

ورغم هذا الموقف الواضح جداً والمباشر تماما ، فقد استمر الهجوم وتواصل، والهجوم المستفز حقيقة جاء من اسماعيل مظهر على صفحات المقتطف فى يناير ١٩٤٧ ، أى بعد أكثر من ١٥ شهر على صدور «الكاتب المصرى» ، وما يدعونا إلى التوقف عنده أنه نشر بعد صدور الكاتب بفترة، وأنه نشر في المقتطف التى تصدر عن جريدة ودار المقطم الصحفية ، وكانت المقطم لسان حال الاحتلال البريطانى

والسفارة البريطانية في مصر .. واتخذت المقتطف موقفا عدائيا ، فقد أوقفت التعامل مع الكتاب الذين ينشرون فى الكاتب ، حيث رفضت نشر مقال لسلامة موسى .. ويبدو لنا أن المنافسة المهنية كانت السبب المباشر فى هذا الموقف ، وهذا يتضح من مدخل مقال مظهر ، حيث يقول: «كنت أول من كتب مبينا عن الأغراض الخفية التى تنطوى ، عليها شركة الكاتب المصرى وهى شركة للطبع والنشر وبيع الورق المضغوط وغيره من أدوات الطباعة ، وراعنى أن يكون الدكتور طه حسين عميل هؤلاء» .

وهذا يعنى أنه يهاجم الشركة كلها ، وليس المجلة ولا رئيس تحريرها فقط ، وكأننا أمام صراع شركات والبيزنس الخاص بها ، ولسنا بإزاء قضية فكرية وسياسية فى المقام الأول . ولغة المقال ومفرداتها لا تليق بحوار فكرى ، فهو يعد د. طه «عميل هؤلاء» ....!!

ويحدد إسماعيل مظهر موقفه الفكرى الذى ينطلق منه فى الهجوم : أن كل صهيونى يهودى أولاً ، وأن كل يهودى صهيونى بعد يهوديته ، وأن الحرب التى يشنونها فى فلسطين حرب اعتداء ، وأن أنظارهم تتطلع إلى الشرق الأدنى برمته ،

وأن يهود العالم أجمعين ، وفي أي ركن من أركان الدنيا ، يتطلعون إلى اليوم الذي يسودون فيه الشرق ، ثم من بعد ذلك يسودون الدنيا ، لأن هذا الشرق هو ولا شك مفتاح العالم المتحضر (١).

أما أن كل يهودي صهيوني بالضرورة وكل صهيوني هو يهودي بالضرورة ، فهذا ما تنادى به الصهيونية وتسعى إليه اسرائيل ، والواقع يكذبه ، فهناك يهود ضد الصهيونية وهناك صهاينة ليسوا يهوداً ، وذلك الموقف العقائدي الذي ينطلق منه مظهر خاطئ تماما ، وتكرار لما تقول به الصهيونية أما أن اليهود يسعون للسيطرة على العالم ، فهو كلام أقرب إلى الأساطير وفولكلور خاص لدى البعض ، وهو كلام استفادت منه الصهيونية كثيراً ، حيث اعتبرته دليل عداء مطلق لليهود، بما أنهم يهود ، وهذا ما جعلها تعلن للعالم أن اليهود في خطر وأنه لابد لهم من وطن قومي ودولة خاصة بهم.

وصل الاستفزاز مداه حين كتب إسماعيل مظهر عدة سطور مطالبا د. طه أن ينشرها في الكاتب ويوقع عليها

---

(١) المقال منشور بكامله في ملاحق هذا الكتاب

باسم « طه حسين ، وهذا موقف غريب ، فيه الكثير من انعدام الذوق الأدبى ، بل هو جليطة ثقافية وأخلاقية ، إن صحت التسمية ، أن يكتب كاتب رأيا أو مقالا ويريد أن يلزم كاتبا آخر أن ينشره ويوقع عليه ، وكأن طه حسين ليس كاتبا، يحتاج من يكتب إليه ، وكأنه بلا موقف ويريد من يتخذ له موقفا أو أنه قاصر ، عديم الإدراك ، يحتاج من ينبهه، هى حالة من تسلط كاتب على آخر ، وهى كذلك حالة من الديماجوجية الفكرية والثقافية ، لذا فقد عامله طه حسين بردر آه مناسبا ، وهو تجاهله التام .. يقول اسماعيل مظهر «وإنى أتحدي طه حسين أن ينقل العبارة الآتية ينشرها فى مجلة «الكاتب المصرى» ممهورة بإمضائه الكريم إن كان من الصادقين : أنا طه حسين المصرى العربى المسلم ، أعلن على صفحات مجلة الكاتب المصرى أن الصهيونية إفك وعدوان على العرب ، وأنها تحاول أن تخرج العرب من ديارهم أو تستعبدهم فيها ليكونوا لها خدما وعبيدا وإنى أبرأ إلى الله من اليهود والصهيونية ...» ثم يقول «هيا سيدى الدكتور ، إن كنت من الصادقين فانقل هذه العبارة فى الكاتب المصرى وأعدها بامضائك الكريم » ولا يختص إسماعيل مظهر طه

حسين بذلك ، بل كل من تعامل مع الكاتب المصرى «..
نتحدى معك كل شيعتك من الذين أخرجت لهم كتبا بمال اليهود أو تعاقدت معهم على أن تخرج لهم كتابا لا يزال تحت الطبع أو كاتب أجرته ليسود صفحات من الكاتب المصرى ، نتحدى هؤلاء جميعاً إن كانوا عربا مسلمين أو نصارى أن ينقلوا أو ينقل واحد منهم هذه العبارة وينشرها ممهورة بإمضائه الكريم . أما إذا فعلوا فقد أمنا بعربيتهم وإسلامهم أو نصرانيتهم ، وإلا فإن الحجة التى تلزمك تلزمهم أيضاً بالتبعية لك» .

الكاتب عبد المنعم شميس كان واحدا من الذين هاجموا د. طه حسين فى ذلك الوقت ، على صفحات مجلة الوادى ، وقال فيما بعد «لم يكن يدور فى خلدى من قريب أو من بعيد أن يكون لأستاذى طه حسين أي علاقة بالصهيونية حتى يروج لأفكارها».

لقد كان مقصدى أن أنبهه كأستاذ نحترمه ونقدره ونجله إلى ما يقال عن هذة المجلة بسبب التمويل اليهودى (١).

(١) سامح كريم : طه حسين فكر متجدد ص ٤٨ ، الناشر ، الدار المصرية اللبنانية يناير ٢٠٠٤.

ولم يتوقف الهجوم على «الكاتب المصرى» فبعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل سنة ١٩٧٩ ، تجدد الحديث عن المجلة ، إذ تقول د. عواطف عبد الرحمن: إن هدف المجلة كان «إسكات الاقلام والألسن المصرية الممثلة فى القيادات الفكرية والثقافية عن محاولة توجية اللوم أو الهجوم على اليهود أو إثارة القضية الفلسطينية على صفحات الجرائد المصرية (١).

فى هذا الجو المفعم بالعداء وبالكراهية تجاه د. طه حسين وتجاه الكاتب المصرى .. جاء صوت قوى يدافع عنه ويندد بالحملة وبمن أثاروها ، هو الشاعر العراقى البارز محمد مهدى الجواهرى ، وكان الجواهرى يصدر جريدة يومية فى بغداد ويرأس تحريرها اسمها «الرأى العام» ، فنشر بها مقالا مطولا بعنوان (انتصار للنبوغ والأدب .. الدكتور طه حسين بل ومجلة الكاتب المصرى) ، المقال كله دفاع وتقدير لطه حسين ودوره الأدبى والثقافى ، وأشادة كذلك بالصحافة العراقية وتنديد بالصحافة المصرية والشامية .. بدأ المقال

---

(١) د. عواطف عبد الرحمن : الصحافة الصهيونية فى مصر . دار الثقافة الجديدة ١٩٨١ ، ص ١٩.

هكذا «كانت الصحف العراقية أكثر ترويا من شتى الصحف العربية في الأقطار المجاورة وأمتن موقفا فيما يختص بالتهمة الموجهة إلى الدكتور طه حسين وهو مفخرة الأمة العربية والعلم المفرد فى تاريخها الأدبى الحديث، من أنه أصبح على حين غرة ومن تحت الليل كما يقول «صهيونيا» ؟ ويقول كذلك «تلك مفخرة غير قليلة الأثر للصحافة العراقية وللعراق فهى فى جملة دلالتها ومفاهيمها تدل قبل كل شئ على أن الوعى الوطنى والسياسى عندنا يتركز تركيزا طيبا»

ويعتبر الجواهرى أن التهم المنسوبة إلى طه حسين هى نوع من «الدسائس الاستعمارية و«النعرات الحزبية والطائفية فى جو موبوء بما يبيت لبلدان الشرق العربى خاصة.

ويصل إلى الحديث عن طه حسين نفسه ، فيقول الجواهرى» هذا الموقف الجميل من الصحافة عندنا وهذه الشهرة الواسعة التى يتمتع بها الدكتور طه حسين فى الأوساط الأدبية والعلمية فى العراق كما فى سائر البلدان العربية الأخرى لم يمنع المتخرصين والغافلين والمأخوذين بتهريجات بعض الصحف فى البلدان العربية وفى مقدمتها الصحف المصرية الغارقة فى الحزبية العنيفة حتى آذانها أن

يتأثروا بعض الشئ بما ألصق بالدكتور طه حسين من تهمة كان يجب أن تكون أقرب إلى الدعابة منها إلى الاتهام . لو جاز فى فن الدعابات شئ من هذا القبيل.

ويعرض الجواهرى للحملة من بدايتها «منذ مدة واللغظ يكثر فى الصحف المصرية الحزبية أولا وفى بعض الصحف فيها باتصالاتها الاستعمارية فى بعض البلدان العربية المجاورة ثانيا ، بأن الدكتور طه أصبح صهيونيا ، ويريدون به (طه) نفس الرجل الذى لم نجد فى مصر من حملة الأقلام من استعرض مثله قضية العرب وفلسطين منه بوجه خاص على ضوء التحليل العميق واستكناه الحقائق وربط الحوادث والتاريخ الحديث فيها بدسائس الاستعمار والمستعمرين والخلوص من كل ذلك إلى الدعوة لبعث الأمة العربية بعثا جديداً خالصاً ».

ويبدى الجواهرى أسفه وألمه أن الحملة بدأت من صحف مصر «بلد الرجل نفسه الذى رفع اسمه عاليا قبل اسم البلاد العربية كلها فى العالم ، وأسبغ عليه نعمه من التقدير لا يقدر أن يسيفها إلا العباقرة وهو قليل فى كل الاجيال.

ثم يتحدث محمد مهدى الجواهرى فى مقاله الذى أعادت

«البلاغ» المصرية نشره – عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥ – عما قدمه د. طه للثقافة العربية عموما ولمصر خصوصا وللعلاقات الثقافية بين مصر والعراق ، فهو الذى أنشأ مكتب التعاون الثقافى بين مصر والعراق ، وهو الذى فتح المعاهد العلمية فى مصر للطلاب العرب من رياض الاطفال وحتى الجامعة ، وهو كذلك الذى بعث بمئات المعلمين المصريين إلى البلاد العربية.

وينتقل الجواهرى ليتحدث عن المجلة الجديدة «لقد كان حلما لذيذا لدى الشباب العربى فى كل الأقطار أن ينزل الدكتور طه إلى ميدان الصحافة الأدبية ، فى هذه الفترة التى يحتاج فيها القراء إلى قبس من الأدب الحى . ولقد كان الاستشار عاما بأن تنبثق مجلة الكاتب المصرى فتمثل مكانة مرموقة بين المجلات العربية البارزة ، وكفى باشراف الدكتور عليها ضمان لهذه المكانة.

ويتوقف عند العدد الأول من «الكاتب المصرى» وأسماء الكتاب الذين شاركوا فيه ويرى أنه جاء وفيا للحلم العام والتوقع من المجلة «ومن مواضيعها كل ما فيه خدمة للعرب وآدابهم وعلومهم» .

المجلة تصدر عن شركة يملكها يهود مصريون مما دفع

الطاعنين إلى الطعن فيها وفى د. طه حسين نفسه ، ونجد شاعر العربية الكبير محمد مهدى الجواهرى يسخر من أولئك الذين لا يميزون بين اليهود والصهيونية «كأن اليهود طاروا من البلدان العربية وعواصمها خاصة واتجهت معهم شركاتهم وزالت عنهم جنسياتهم ، ولم يبق لرأى عربى لا فى السياسة ولا فى الاقتصاد ولا فى الصحافة ولا فى الأدب أى ارتباط بهم . وكأن اليهودية فى البلدان العربية هى الصهيونية بعينها.

ويناشد الجواهرى الكتاب والصحفيين التريث فى الحكم على «هذه الحفنة الصغيرة جداً من مفاخرنا» خاصة وأن العدد الأول من المجلة كان قد صدر ، وكانت مادته كاشفة ومقالاته وموضوعاته «كل ما فيه خدمة للعرب وآدابهم وعلومهم ، والأهم من ذلك أو إلى جوار ذلك » أن أحدا لم يشم – ولن يشم – رائحة ولو قليلة من رواغ الصهيونية فى المجلة.

ويتحدث الجواهرى عن دور المجلة والمتوقع منها وعن كتابها العظام ومحرريها أيضاً، ثم يخاطب رئيس التحرير مهوناً عليها ما يتعرض له وما قوبل به» ويقول له أيضا «أنت

أيها الرجل العظيم ، أمعن في سبيلك القويم ، ولا تأبه بالحشرجات الضعيفة التي ليست بآخذة منك بشئ ويقول له أيضاً: «إن المعترفين بفضلك لكثيرون وإن المعجبين بك في الشرق كله لأكثر وإن الأصوات التي تذكر جهادك وتتحدث عن جليل أثرك وعظيم عملك لضمينة بإغراق هذه الحشرجات » ويطمئن الجواهرى عميد الأدب طه حسين بأن المستقبل معه ويسانده «الشباب العربى ليشد أزرك ، ويعينك على أداء رسالتك.

ولو توقف خصوم المجلة ورئيس تحريرها أمام عنوانها «الكاتب المصرى» لأعادوا النظر في موقفهم ، العنوان مأخوذ عن تمثال الكاتب المصرى ، وكان «لوجو» المجلة يحمل صورة التمثال إلى جوار العنوان، والتمثال يعود إلى لحظة مجيدة في التاريخ المصرى القديم (الفرعونى) - تؤكد أن المجلة لا يمكن أن تخضع للتأثير ولا للهوى الصهيوني ، فالأفكار الصهيونية تحمل عداء حقيقياً للحضارة المصرية القديمة ورموزها وأن تصدر المجلة باسم وصورة أحد هذه الرموز، يعنى المناوأة للصهيونية ، إن لم يكن العداء لها.

الفصل الحادى عشر:

الكاتب المصرى وفلسطين

يبدو أن طه حسين كان هو المستهدف من الهجوم على «الكاتب المصرى» ، فالذين هاجموه تناسوا كتاباته من قبل ، خاصة ما يتعلق منها بالقضية أو المسألة الفلسطينية ، وحتى حين صدرت «الكاتب المصرى» فإنهم لم يتابعوها جيداً أو لم يدققوا فى القراءة ، فهى مجلة اتخذت من الكاتب المصرى القديم شعارا واسما لها ، وتعلن المجلة فى العدد الأول منها أنها «ستكون صلة ثقافية بأدق معانى هذه الكلمة وأرفعها بين الشعوب العربية أولا وبين هذه الشعوب وأمم الغرب ثانيا ، وتعلن كذلك أنها «لن تؤثر بعنايتها فريقا من أدباء العرب دون فريق » وهى أيضا كمجلة «تنظر إلى أمس وتنظر إلى اليوم ، وتنظر كذلك إلى غد ، فتنشر ما يحيى الأدب القديم ، وستنشر ما يقوى الأدب الحديث ، ولكنها فى الوقت نفسه ستعنى بهؤلاء الشباب الذين يجربون أنفسهم ويحاولون أن يشاركوا فى الانتاج الأدبى ، فتفتح لهم مكانا رحبا بين صفحاتها ، وستلقاهم رفيقة بهم مشجعة لهم ، ولكن قاسية

عليهم فى النقد والاختيار .

والمفترض أن المجلة - أى مجلة - تحاسب وفق البرنامج الذى اتخذه القائمون عليها لها .. هل التزمت وأوفت به ؟ والمفترض كذلك أن المجلة الثقافية والأدبية يتم تقييمها بالمعايير الثقافية والأدبية .. والواقع أننا إذا تعاملنا مع «الكاتب المصرى» بناء على ذلك لوجدنا أنها متميزة ، ليس فقط بمعيار تاريخ صدورها ، بل حتى بمعاييرنا نحن اليوم ، بعد مرور أكثر من ستين عاما على توقفها .. فقد حرصت على أن تربط بين الأدباء العرب جميعا ، حتى وجدنا كاتبا عراقيا هو إبراهيم الوائلى يكتب للمجلة » عدد إبريل ١٩٤٦ ، مشيدا ومحييا «خروجها عن العزلة الإقليمية التى سارت عليها كثرة الصحف المصرية منذ نشأتها حتى الآن ، فكان من جراء ذلك فقدان الرابطة الأدبية بين مصر وسائر البلاد العربية ومن أهمها العراق . فلم تعد مصر - ولا مبالغة - تعرف عن النهضة الأدبية الحديثة فى العراق إلا النزر اليسير

وقدمت «الكاتب المصرى» كبار الكتاب وكذلك الشباب الواعد منهم ، نذكر هنا على سبيل المثال ، سهير القلماوى

وعبدالقادر القط والشاعرة ملكة عبدالعزيز - ملك عبدالعزيز فيما بعد - وهى اهتمت بالأدب العربى قديمه وحديثه ، من الجاحظ والأصفهانى إلى كتاب القرن العشرين ، وانفتحت على الآداب الغربية الحديثة فى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، واهتمت أيضا بالترجمة عن «الفارسية» والقصة فى الاتحاد السوفييتى .

واتسمت الكاتب المصرى بالجرأة الشديدة ، فقد نشرت دراسات عن الأدب الروسى ، وكان ذلك يعد «هرطقة» فى عصر الملك فاروق ، كما أنها نشرت دراسة محمد عبدالله عنان عن القرامطة باعتبارها دولة شيوعية إسلامية ، وكتب طه حسين عن ثورة الزبخ ويتساءل «أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن فى أحداث التاريخ العربى القديم ما يستطيع أن يلهمهم حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر ؟ أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن من حق هذه الأحداث عليهم أن ينظروا فيها بين حين وحين ، كما ينظرون إلى أحداث أخرى وإلى ألوان أخرى من التاريخ ؟ (عدد مايو ١٩٤٦).

ونشر طه حسين بالمجلة فصول كتابه الشائك «المعذبون فى الأرض» والذى أثار عليه القصر الملكى والحكومة القائمة

آنذاك .

لم يلتفت خصوم طه حسين وخصوم الكاتب المصرى إلى شيء من هذا ، ولكنهم راحوا يحاسبونها كمجلة سياسية تقدم الموقف السياسى وتتخذ موقفا بعينه وبأسلوب لا يتناسب معها ، بل قرروه هم ، وارادوا أن يفرضوه على المجلة وعلى رئيس تحريرها ، وتم استدراج عدد من الكتاب والنقاد إلى ذلك الموقف ، حتى وجدنا ناقدا فى قامة رجاء النقاش يكتب فى «الهلال» فى معرض الدفاع عن طه حسين وعن الكاتب المصرى «ظهرت المجلة فى السنوات الملتهبة التى تلت الحرب العالمية الثانية وكان هناك مشكلتان أساسيتان تواجهان الوطن العربى . وهى مشكلة الاستعمار ومشكلة اليهود الذين كانوا قد بدأوا عملية تصعيد العنف فى فلسطين تمهيدا لإقامة دولتهم ، وقد انصرفت المجلة عن معالجة هاتين المشكلتين ، وكان انصرافها كاملا بالنسبة لقضية فلسطين ، حيث إن المجلة لم تنشر كلمة عن هذه القضية على الإطلاق ، ويعتبر رجاء النقاش ذلك «هو الخطأ الأساسى فى المجلة ..» وصحيح أن رجاء النقاش يختلف مع خصوم طه حسين فى أنه لا ينسب هذا الخطأ إلى العمالة والميل نحو الصهيونية

مثلهم ، بل يفسره بحسن النية وربما السذاجة لدى طه حسين ومن جايله من كبار الكتاب والمثقفين .

والواقع أن الكاتب المصرى ورئيس تحريرها ، لم يغفلوا عن المشكلة الصهيونية في فلسطين ولا مشكلة الاستعمار ، بل تعامل من العدد الأول للمجلة مع هاتين القضيتين ، فقط تعامل بأسلوب ثقافى وفكرى رصين يليق بمجلة ثقافية وأدبية رصينة .

في العدد الأول – اكتوبر ١٩٤٥ . يكتب طه حسين مقالا بعنوان «بريطانيا العظمى والشرق الأدنى» تحدث فيه عن استعمار بريطانيا لمصر وللعراق وفرض الانتداب عليهما ثم فرضه على فلسطين وشرق الأردن ، ويتعرض لإلغاء الانتداب على مصر سنة ١٩٣٦ وفق المعاهدة التى وقعتها مع بريطانيا تم إلغاء الانتداب على العراق والإبقاء عليه فى فلسطين .. وينهى المقال بالقول «وما أشك فى أن الشرق العربى كله لا يتمنى شيئا كما يتمنى أن تلغى المشكلات السياسية بينه وبين الغرب عامة ، وبينه وبين بريطانيا خاصة ، وأن يستأنف عهد جديد تستقل فيه الأوطان العربية استقلالا كاملا صحيحا .. ثم يقول: ولتحقيق هذه الغاية العليا ، يجب أن تخطو بريطانيا

العظمى خطوة حازمة جريئة . وكل شىء يدل على أن الشعب البريطانى يود لو يخطو هذه الخطوة ، فيخلى بين أمم الشرق العربى وبين حقها الكامل فى الاستقلال ، ويلغى هذه المشكلات التى إن دل بقاؤها على شىء فإنما يدل على أن الغرب لم ينتفع أو لا يريد أن ينتفع بهذه الدروس القاسية التى ألقتها الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية على الناس . وويل للناس إذا قدمت إليهم الموعظة و لم يتعظوا وأهديت اليهم العبرة فلم يحسنوا الاعتبار ».

وفى العدد الثانى يكتب المؤرخ محمد رفعت دراسة عن «مصر وحيدة قناة السويس» .. يندد فيها بالفكرة التى كانت مطروحة آنذاك وهى أن تعتبر قناة السويس منطقة محايدة وأن يوكل أمرها إلى الأمم المتحدة ، وهو يطالب بأن تعود القناة إلى مصر والمصريين «إن الحيدة كما قررها علماء القانون الدولى هى انتقاص لاستقلال البلاد ، وحد من حريتها فى التوسع والتحالف السياسى مع من تشاء من الدول، ونحن نعرف أن مصر مقبلة على طور جديد وخطير فى حياتها الدولية ، فقد أنشأت مع أخواتها جامعة الدول العربية للزود عن صالح الأمم العربية . وقيام هذه الجامعة

وحده ينافى تماما مبدأ «الحيدة» . ولاتزال أمام مصر أهداف سياسية وإقليمية تسعى لإدراكها ، ولا أمل فى بلوغها مع التواصل والقناعة والاستسلام وجميعها مرادفات لمعنى الحيدة ، ويكتب د. محمد عوض محمد فى العدد الثالث عن تقدم الصين وتراجع بريطانيا تماما ، ترى هل بسبب هذه الآراء وتلك النوعية من المقالات التى لن تنقطع فى بقية الأعداد نشطت الصحف المرتبطة بالسفارة البريطانية فى مهاجمة الكاتب المصرى وطه حسين بذريعة أن ملاكها من اليهود المصريين؟!

وليس صحيحا أن «الكاتب المصرى» كمجلة تجاهلت فلسطين وأنها لم تنشر عنها أى شىء .. المجلة كانت تهتم بالقضايا الثقافية عموما ، وكانت تتناول القضايا الوطنية والقومية ، من منطلق ثقافى ، وبهذا المعنى تم تناول فلسطين وقضيتها مرات عديدة ، بأعمق وأوضح الكلمات والتحليلات.

فى العدد الرابع - يناير ١٩٤٦ - تنشر المجلة دراسة للدكتور سليمان حزين حول «الجامعة العربية ومقوماتها الجغرافية والتاريخية ، جاء فيها عدة فقرات حول فلسطين ، كتب د. حزين «ولابد هنا من أن نشير بصفة خاصة إلى

موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرقى . وذلك أن فلسطين بوضعها الحالى هى الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى . فحدودنا البرية من الشرق لا تلاصق بلدا غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البرى بيننا وبين بقية بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين. «ويضيف د. حزين قائلا» وإذن فإن فلسطين إن هى بقيت خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزا حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة ، فيعوق مثلا تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسير تبادل المنتجات والمتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة . أو تعوق مرور أنابيب البترول الحجازية إلى إحدى موانى ساحل مصر للتكرير والتصدير أو تعرقل أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أو غير ذلك من الحالات التى قد تبدو افتراضية محضة فى الوقت الحاضر ، ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلمة إذا لم تنل فلسطين ما تريده لها العرب من كيان سياسى مستقل» .

ويتطرق د. حزين فى دراسته المهمة إلى جانب آخر لأهمية فلسطين بالنسبة لمصر ولغيرها من البلاد العربية «إن

لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ، فهى تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ، وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان الشرق العربى كله . وإذا لم يضمن العرب أعضاء الجامعة الجديدة أن تبقى فلسطين للعرب ، وإذا لم يضمنوا فوق ذلك أن تبقى أرضها فى أيد صديقة حتى يتم إنشاء الدولة الفلسطينية العربية ، فإنهم لا يضمنون شيئا بالنسبة لكيان الجامعة كلها من الناحية العسكرية» ويؤكد عمق الصلة بين مصر وفلسطين «ولعل مصر تتأثر من هذه الناحية أكثر من غيرها ، فهى كما ذكرنا تقع وحدها فى جانب من فلسطين ، وباقى أعضاء الجامعة فى الجانب الآخر، كما أن فلسطين وشبه جزيرة سينا كانا على الدوام مصدر خطر بالنسبة لمصر ، وطريق غزوات تاريخية كثيرة أتتنا من الشرق ..

ويواصل د. سليمان حزين على هذا النحو الشرح والتفصيل .. لكن المهم أننا بإزاء وجهة نظر علمية ، تعتبر فلسطين قضية أمن وطنى وقومى بالنسبة لمصر فى المقام الأول ثم للبلاد العربية مجتمعة ، وأنها لا يجب أن تترك خارج الجامعة العربية ، أو أن تكون فى أيد ليست عربية ولا

فلسطينية .

وبالقطع فإن هذه الدراسة لم تنشر من وراء رئيس التحرير د. طه حسين ولا رغم أنفه ، بل إن كاتبها د. سليمان حزين كان أحد تلاميذ د. طه حسين ومن أقربهم إلى عقله وفكره.

في عدد ابريل ١٩٤٦ «الكاتب المصرى» نشر د. محمد عوض محمد الجزء الثانى من دراسته حول «الانتداب والوصاية والاستعمار» ، تحدث فيها عن أشكال الانتداب والممارسات الاستعمارية ، وتوقف طويلا عند فلسطين وما يجرى فيها «ولا يتسع المقام هنا للأشارة إلى الانتداب الفلسطينى الشاذ . ولكن أمره على كل حال معروف للقراء فى جميع الأقطار العربية .. وربما كانت هنالك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ لا يذكرها أكثر الكتاب ، وهى أن مشكلة فلسطين مشكلة خلقتها بريطانيا خلقا عن عمد وعن سبق إصرار ، لكى تثبت أقدامها فى هذا الركن الخطير من أركان العالم . فقد أدركت السياسة البريطانية أن لفلسطين من الموقع الحربى ، والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمرا لازما لدولة مثل بريطانيا . «ويواصل د.

محمد عوض» رأى السياسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل ، ولا تحتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكى تنال الاستقلال التام . فلم يكن بد من إدخال عنصر جديد فى السكان توغر صدور العرب ، وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق ، وتشتد الحاجة إلى حاكم محايد لكى يفصل بين المختصمين وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها فى فلسطين إلى أجل غير مسمى .

ويتوقف د. محمد عوض محمد عند كاتبين بريطانيين يستشهد بهما لتأكيد ما ذهب إليه ، الأول هو المؤرخ تميرنى «فى المجلد الرابع من كتابه عن مؤتمرات الصلح الصادر سنة ١٩٢٠ حيث ذهب إلى أن هناك أسباباً خاصة دعت بريطانيا إلى سياستها فى فلسطين ، وهى تغطية قناة السويس وإيجاد عنصر من السكان يرى مصلحته فى تأييد بريطانيا وفوق ذلك «ما تناله من تأييد اليهود فى جميع أنحاء العالم».

الكاتب الآخر هو السير مارتن كونواى فى كتاب له صدر سنة ١٩٣٢ ، حيث يؤكد أن بريطانيا تعمدت خلق مشكلة فلسطين على النحو الذى هى عليه .

في العدد التاسع من المجلة - يونيه ١٩٤٦ - يكتب طه حسين مقاله الافتتاحي بعنوان «من القاهرة إلى بيروت» ، يحكي فيه عن رحلته إلي بيروت ، وكانت رحلاته كلها بالبحر ، وهكذا وجد في السفينة التي أقلته إلي بيروت وكانت سفينة فرنسية ، عددا من اليهود المهاجرين إلى فلسطين ويصف المشهد حين اقتربت السفينة من ميناء حيفا بفلسطين «أقبل هؤلاء المهاجرون جميعا يقودهم رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمنا بعد خوف وراحة بعد عناء . ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا في إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن في الأرض أوطانا كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين . وهؤلاء الجنود البريطانيون قد ملأوا ثغر حيفا بالعدد والعدة وبالبأس والقوة ليحموا هبوط هؤلاء البائسين إلى هذه الأرض التي تكره على إيوائهم إكراها .. ويضيف د. طه قائلا « حتى عمال السفينة أنفسهم كانوا ينظرون إلى هذا كله ساخطين عليه ضيقين به ، مبغضين له ، يجهرون بالشكوى من تحكم المنتصرين الذين يسخرون سفينة فرنسية لشيء يملأ صدور العرب حرجا وضغينة دون أن يستطيعوا إباء وامتناعا . أليست فرنسا مضطرة إلى أن تصانع

المنتصرين من البريطانيين والأمريكيين لتستطيع أن تعيش» .

ويبدو أن طه حسين كان يرى أن القضية برمتها باتت واضحة للجميع وأنها لا تحتاج إلى قول جديد ، بل إلى فعل ، ففي عدد ديسمبر ١٩٤٦ قام هو بتحرير باب «شهرية السياسة الدولية» ، وهو باب كان يقوم عليه د. محمود عزمى، وقد تعرض فيه عزمى للقضية الفلسطينية ومساراتها فى المحافل الدولية وما يدبر لفلسطين بين القوى المنتصرة أكثر من مرة وكان يستفيض فى الشرح والتفصيل .. وكان يختصها بعنوان خاص هو «قضية فلسطين» .

لكن حين تولى طه حسين ذلك الباب ديسمبر ١٩٤٦ مستعرضا احداث السياسة العالمية فى شهر نوفمبر ١٩٤٦ ، تراه يتحدث عن القضية الايرانية فيما يخص الصراع على أذربيجان بين إيران وروسيا ، ولم يكن متفائلا ، فالوقائع كانت تتجه لصالح روسيا ، وتحدث كذلك عما يتعرض له الشعب التركى من المنتصرين فى الحرب ، تحديدا بريطانيا والولايات المتحدة ، وحين جاء الحديث عن الواقع العربى اكتفى د. طه بالقول «وحديث الشرق العربى أوضح وأبشع من أن نحتاج إلى ذكره فضلا عن الإطالة فيه» .

في باب «ظهر حديثا» – عدد اكتوبر ١٩٤٦ – يكتب محمد سعيد العريان مقالا عن كتب أربعة ظهرت في توقيت واحد ، وهي «يقظة العرب» لجورج انطونيوس والعرب تأليف د. فيليب حتي وكتاب قضية فلسطين من تأليف نجيب صدفة والرابع هذه هي الأغلال تأليف عبدالله القصيمي .. وعن كتاب فلسطين كتب العريان بعد أن فرغ من عرضه «واليوم يجتمع المؤتمرون فى لندن لبحث مشكلة فلسطين وهذا كتاب بالعربية يفصل مراحل هذه المشكلة منذ سولت لبريطانيا مطامعها أنها تستطيع أن تعقد صفقتين على سلعة لا تملكها ، لتقبض ثمنها مرتين، إحداهما من المالك الأصلى.. فهل ألفه مؤلفه فى هذه المناسبة ليكون لونا من ألوان الدفاع أمام المحكمة التى توشك أن تنفض ونصف أعضائها خصوم للنصف الآخر ، أم ألفه ليكون مقدمة كبيرة للجهاد الكبير الذى يوشك أن تزحف جحافله لاستخلاص الحق من مغتصبه .. «ويجيب العريان على متمنيا «.. فليت كل صهيونى فى انجلترا وفى أمريكا يتاح له أن يقرأه ليعرف بأي باطل يستمسك . وليت كل عربى فى المشرق والمغرب يقرؤه كذلك ليعرف عن أى حق يدافع !».

ويكتب سكرتير تحرير المجلة حسن محمود مقالا بعنوان

«من فلسطين إلى السودان .. جولة موظف بريطانى» فى عدد مارس ١٩٤٧ - العدد - رقم ١٨ - المقال عرض ومراجعة لكتاب صدر فى لندن سنة ١٩٤٦ وضعه سيرسيتوارته سيمز بعنوان «رحلة الواجب» أو Tour of Duty والكتاب كما يرى سكرتير التحرير لا يتمتع بأهمية خاصة «فهو لا يمتاز بأناقة فى الأسلوب ، ولا هو أخاذ بحسن السرد ، ولا بنظامه فى ترتيب الموضوعات ، وإنما خير ما يمتاز به الكتاب صراحة صاحبه ، فالرجل، كما تتبين من كتابه ضيق الأفق فى السياسة ، لا يساءل فيما يؤمر أن ينفذه فى عمله ، واكنه واسع الحيلة فى تنفيذ هذه السياسة ، يعرف كيف يصل إلى غرضه ..».

بدأ المؤلف البريطانى حياته موظفا فى الهند ، ثم عمل فى فلسطين بين عامى ١٩٢٠ و١٩٢٨ وشغل فى وقت من الأوقات منصب السكرتير العام لحكومة فلسطين ، وظل لمدة ثلاثة شهور قائما بعمل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين .. وكانت هى السنوات الحاسمة فى تنفيذ وعد بلفور بزيادة أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، وكان سيتوارت بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٥ يتولى إدارة المنطقة الممتدة من الخليل

إلى سمرة ، ولم تكن هذه المنطقة بها مشاكل كثيرة مثل منطقة القدس أو يافا ، لكن كان بها ميناء كبير هو «حيفا» ومدينة ناهضة هي «نابلس» وسكانها يغلب فيهم المسلمون» وقد قامت بينهم الحركة الصهيونية فرأوا فيها نذيرا، وتغلبت على ماعداها من اختلافات محلية» .

ويرصد حسن محمود ما أورده المسئول الإنجليزى من عمليات خداع متتالية للعرب ، كان المندوب السامى فى فلسطين سيرصموئيل هور وكان إسرائيليا وكذلك كان النائب العام ، ولم يكن القادة العرب يرون فيهم أناساً محايدين ، لذا رفضوا الاجتماع بهم ، لكنه ذهب إلى أحد أصدقائه من العرب المتحمسين وأقنعه بضرورة حضور الاجتماع ، وبالفعل حضروا الاجتماع ، ولم تكن النتيجة لصالح العرب ، بل كانت فى صالح المهاجرين من اليهود .

وذات مرة تقرر وقف مؤقت للهجرة اليهودية إلى فلسطين مراعاة لخواطر العرب ، وحرصا على سلامة المهاجرين ، وعقد اجتماع للمسئولين الانجليز بفلسطين ، كان الاجتماع مهتم بقضية واحدة هى «هل من الممكن استئناف قبول المهاجرين بعد وقف الهجرة مؤقتا ؟ «وكان رأى معظم

الحاضرين ضرورة وقف الهجرة لكنه انبرى ليقول إن الإجراء الذى اتخذته الحكومة بوقف الهجرة هو «إجراء ضرورة وانتهاز للفرصة ، وأنه بهذا الوضع لا يليق بالحكومة أن تستمر فيه ، ووافق المندوب السامى على رأيه ..» فيعاود المندوب السامى سؤاله إن كان ممكنا أن يفتح ميناء حيفا لقبول هجرات جديدة ، فيطلب أن يخبروه قبل وصولهم بأسبوعين وأن يتركوا له إخبار الأهالى وتمهيد الأمر معهم ، ومع ذلك فقد أهل مهاجرون سرا بالميناء ، دون أن يخبر الأهالى ، رغم أنه أكد لهم أنه لن يدخل مهاجريهودى جديد دون موافقتهم .

ولم يكن المسئول الإنجليزى متعاطفا مع مطالب العرب وأكثر من ذلك «ذهب مع الفكرة الكبيرة ذلك الأمل فى أن يتقدم أمير صهيونى ملىء الجيب بالأموال ليخطب فلسطين عروسا له ...» ويضيف حسن محمود «..عرف الحلفاء وبريطانيا خاصة فى أثناء الحرب ، كيف يتقاضون من اليهود مساعدة مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين ، وتقدم العالم اليهودى بطلب تحقيق الوعد فى الدولة الجديدة».

يحكى المسئول الإنجليزى الكثير من التفاصيل عن دوره فى فلسطين ، وخداعه لأحد الزعماء المسيحيين بفلسطين ، ويعلق سكرتير تحرير الكاتب المصرى «وهكذا نرى صراحة المؤلف فى وصف الدور الذى كان يقوم به فى فلسطين ، ويقوم به مئات من أمثاله من الموظفين البريطانيين حتى اليوم ».

والذى يراجع أعداد «الكاتب المصرى» يتبين مدى التدقيق فى المواد المنشورة ، واهتمام القائمين عليها بردود فعل القرآء والنقاد ، وحدث أن القاضى «حبيب زعلاوى» نشر قصة بها سبق أن نشرت بإحدى المجلات العربية ، فعاتب سكرتير التحرير زعلاوى كتابه ، ونفس الأمر حدث بالنسبة لأحد مقالات سيد قطب ، كان قد نشره فى مجلة «الثقافة» وقام - فقط - بإجراء بعض التعديل فيه ، وهذا يعنى - كل ما ينشر كان يتم التدقيق فيه ومتابعته حتى بعد النشر ، وهذا يعنى أن كل ما نشر عن فلسطين والصهيونية ، ولم نتوقف هنا، أمامه كله تمت مراجعته والموافقة عليه واعتماده من رئيس التحرير، الذى هو د. طه حسين .

وفور صدور عدد مايو ١٩٤٨ من الكاتب المصرى تقرر

إيقاف المجلة نهائيا ، ففى ٥ مايو ١٩٤٨ بعث د. طه بخطاب إلى مدير المطبوعات جاء به «أتشرف بإبلاغكم أن إدارة الكاتب المصرى قررت وقف هذه المجلة التى كنت رئيس تحريرها فأرجو أن تتفضلوا فتك خطوا أنى لم أعد مسئولا عما تصدره هذه الدار عن النشرات الدورية » (١).

وبعد ذلك اتخذت الإجراءات لإنهاء ترخيص المجلة ، والواضح أن د. طه كان قد قرر إنهاء علاقته بالمجلة وبالشركة كلها ، قرينته السيدة سوزان ذكرت فى كتابها «معك» أن المجلة وما كان يقوم به طه حسين فيها لم يكن يروق للقصر .. وهناك رأى بأن ضغوطا مورست عليه من الحكومة القائمة آنذاك ، وقيل بل هى ضغوط جماعة الإخوان المسلمين وكانت عمليات العنف التى نظموها قد بدأت .. ترى أى هذه الأسباب .. أم أن د. طه وجد أن مصر على أبواب حرب جديدة ، وأن الوضع العام لم يعد يحتمل مثل هذه المجلة ، هل رأى القصر فى القضية الفلسطينية وسيلة للضغط على طه حسين لأسباب تخص القصر ، فقد كانت المجلة مزعجة

---

(١) راجع د. على شلش: مرجع سابق ص٩٦

بالنسبة لهم لحديثها عن العدالة الاجتماعية وضرورتها ، هل ضغط أنصار بريطانيا فى السياسة المصرية على طه حسين .. هل رأى طه حسين أن تفكيره فى التمييز بين اليهود الوطنيين والصهيونية بات صعبا ومكلفا ، فقرر التوقف :

أيا كانت الأسباب توقفت المجلة وخسرت الحياة الثقافية العربية منبرا قويا للتعددية الفكرية والجمع بين القديم والجديد، أو الأصالة والمعاصرة .

توقفت المجلة عن الصدور اعتبارا من مايو ١٩٤٨ ، لكن الاتهامات للمجلة ولرئيس تحريرها ، لم تتوقف إلى اليوم ، تلوكها الأجيال ، دون محاولة جادة للتحقق من تلك الاتهامات، الغريب أن الاتهامات تحولت اليوم على المواقع الالكترونية إلى أحكام قاطعة ونهائية .

ومع توقف المجلة خسرت الثقافة العربية منبرا جادا ورصينا، يؤمن بالتعددية الفكرية وحرية الرأى، وبسبب هذه الاتهامات مر قبل عامين - سنه ٢٠٠٨ - ستة عقود على إغلاقها ولم نحتفل بهذه المناسبة، بل لم نتذكر المجلة.

ويمكن القول أنه بتوقف المجلة هزم التيار الذى دعا إلى التمييز بين اليهود عموما والصهيونية خصوصا ، وجرت أمور

كثيرة فى الدول العربية ، وتسبب ذلك فى خروج آلاف اليهود العرب من بلادهم ، وكان علينا أن ننتظر حوالى عشرين سنة - بعد حرب يونيه ١٩٦٧ . لنكتشف أن ذلك كان خطأ، فقد ذهبوا إلى إسرائيل وصاروا قوة عددية مضافة إليها.

أما ما جرى مع د. طه حسين فلم يكن خطأ ، بل كان خطيئة مركبة، لم يتم الاعتذار عنها، فضلا عن عدم الاعتراف بها حتى اليوم .

الفصل الثانى عشر:

مصر والشرق الأدنى

وصف د. طه حسين من بعض منتقديه ، في معرض الهجوم عليه، أنه من دعاة الفرعونية وأنه من دعاة الاتجاه بالكامل إلى أوروبا ، أو التأورب والتغريب ، لاحظ التضارب والتناقض بين التصنيفين ، فمن يدعو إلى الفرعونية ، لن يكون من أنصار التأورب ، بل لعله يكون معادياً للتأورب ، باعتبار أن الفرعونية ، تعنى أن تكون مصر امبراطورية قوية تخضع الآخرين ولا تخضع لهم ، تعلمهم ولا تتعلم منهم ، تضيف إليهم ولا تأخذ منهم ، وما يريد أن يذهب إليه مهاجموا طه حسين بجمع ما هو متضارب ومتناقض ونسبته إليه ، أنه عدو للعروبة ، رافض عروبة مصر .. وقد استند هؤلاء على كتاب د. طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر» ، الذى صدر سنة ١٩٣٨ ، فى أعقاب توقيع مصر معاهدة ١٩٣٦ ، ورغم أن الكتاب من عنوانه ينشغل بالمسألة الثقافية ، وفي المتن يركز فى المقام الأول على أوضاع النظام التعليمى في مصر ، وما يجب أن يكون عليه ، وبعض ما تناوله طه حسين فى كتابه مازال مطروحا علينا إلى اليوم .. لكن

السادة النقاد تجاهلوا ذلك وتعاملوا مع الكتاب باعتباره كتابا سياسيا ، ربما توقفوا عند المقدمة وعند عناوين بعض فصوله ، لكن دون دراسته بالقدر الكافى أو قراءته جيدا.

كانت القضية واضحة فى عقل وكتابات طه حسين، وكان يدرك جيدا أن لأوروبا وجهين الوجه العقلانى المستنير والوجه الآخر وجه الاستعمار والهيمنة ، وكان حريصا على أن نستفيد بالأول ونتخلص من الثانى «أريد كما يريد كل مصرى مثقف، محب لوطنه ، حريص على كرامته ، ألا نلقى الأوروبى فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا ، وما يضطرنا إلى أن نزدرى أنفسنا ، ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة .. (١).

وهو يرى أن ضعفنا وهواننا أمام الأوروبيين أمر لا يجب القبول به ولا السكوت عنه «فليحرص كل مصرى على أن يجنب نفسه وأمته هذا الخزى . وسبيل ذلك أن نأخذ أمورنا بالحزم والجد منذ اليوم (٢) ويقول أيضاً «إن الواجب الوطنى

---

(١) د. طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ص ١٦ الناشر دار المعارف بمصر ١٩٩٦.

(٢) المرجع السابق . ص ١٧.

الصحيح (..) هو أن نبذل ما نملك وما لا نملك من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين أفراداً أو جماعات أن الله قد خلقهم للعزة لا للذلة ، وللقوة لا للضعف ، وللسيادة لا للاستكانة ، وللنباهة لا للخمول ، وأن نمحو من قلوب المصريين أفراداً وجماعات هذا الوهم الآثم الشنيع الذى يصون لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوروبى، وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوروبية ، ومنحوا عقولا غير العقول الأوروبية (١) . ويصل الأمر لديه إلى مستوى العقيدة «يجب أن نقر فى أنفسنا أن نظام المساواة فى الحقوق والواجبات ، هذا الذى نريد أن نقره فى حياتنا الداخلية ، هو بعينه النظام الذى يجب أن نقره فى حياتنا الخارجية وفيما بيننا وبين أوروبا من الصلات . (٢).

طه حسين يحرص على الاستقلال عن أوروبا والأوروبيين ، والندية معهم ، وليس أن نذوب ونفنى فيهم ، كما لا يجب أن ننعزل عن أوروبا «فأنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا ولا إلى أن نجحد ماضينا ولا أن نفنى فى الأوروبيين ، وكيف يستقيم

(١) المرجع السابق ص ٣٧
(٢) المرجع السابق ص ٣٨.

هذا وأنا إنما أدعو إلى أن نتبت لأوروبا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها . ونمنعها من أن تأكلنا (١).

وهو يحدد معيار التعامل مع أوروبا وما نأخذه منها وعنها «ونحن من ندعو إلى الاتصال بأوروبا والأخذ بأسباب الرقى التى أخذوا بها ، لا ندعوا إلى أن نكون صورا طبق الأصل للأوروبيين كما يقال فذلك شيء لا سبيل إليه ولا يدعو إليه عاقل » ويضيف قائلاً .. والأوروبيون يتخذون المسيحية لهم دينا فنحن لا ندعو إلى أن تصبح المسيحية لنادينا ، وإنما ندعو إلى أن تكون أسباب الحضارة الأوروبية هى أسباب الحضارة المصرية.

وطه حسين يرى ويقتنع بأن مصر بلد عريق ، وأن حاضره ينبغى أن يكون امتداداً لذلك الماضى وليس نكوصا عنه «أريد كما يريد كل مصرى مثقف ، يحب وطنه ، ويحرص على كرامته ، وحسن رأى الناس فيه ، أن تكون حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم ، وأن يكون نشاطنا الحديث محققا لرأينا فى أنفسنا حين كنا نطالب بالاستقلال ، ومحققا لرأى الأمم المتحضرة ، فينا حين رضيت لنا عن هذا

(١) السابق ص ٤٩

الاستقلال (١) .

ما آثار اللغط حول موقف طه حسين من الغرب، وحديثه عن صلات العقل المصرى بالعقل اليونانى ، هو تعريفه ومفهومه للشرق» .. أنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى ، وإنما أريد الشرق الثقافى والغرب الثقافى (٢) «ثم يقول» يظهر أن في الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف ، ويتصل بينهما صراع بفيض ، ولا يلقى كل منهما صاحبه إلا محاربا أو متهيئا للحرب . أحد هذين النوعين هذا الذى نجده فى أوروبا منذ العصور القديمة، والآخر هذا الذى نجده فى أقصى الشرق منذ العصور القديمة (٣) .

وهو يصر على أن العقل المصرى لم يتأثر ولم يقترب بالفعل من الشرق الأقصى «أول ما نلاحظه فى تاريخ الحياة المصرية أننا لا نعرف أن قد كان بينهما وبين الشرق البعيد صلات مستمرة منظمة من شأنها أن تؤثر فى تفكيرها أو فى سياستها أو فى نظمها الاقتصادية (٤) ويلح على هذا المعنى

---

(١) السابق ص ٤٤. (٢) السابق ص ١٦.

(٣) ، (٤) المرجع السابق ص ١٨.

«إن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى . ولا بالشرق البعيد قليلاً ولا كثيرا ، وإنما نشأ مصريا ثم أثر فيما حوله وتأثر به »(١) ويضيف تأسيسا على ذلك «من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين» (٢)

وهو يكرر ذلك المعنى طوال صفحات الكتاب ، وفى الكثير من مقالاته «فالعقل المصرى القديم ليس عقلا شرقيا إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الاقطار . وقد نشأ هذا العقل المصرى متأثراً بالظروف الطبيعية والانسانية التى أحاطت بمصر وعملت فى تكوينها ثم نها وربما ، وأشرف غير الشعب المصرى من الشعوب المجاورة ، وكان من أشد الشعوب تأثراً بهذا العقل المصرى أولاً ، وتأثيرا فيه بعد ذلك العقل اليونانى (٣).

قسم طه حسين الشرق إلى قسمين «شرق أقصى يضم الهند والصين ، وشرق أدنى يضم مصر، هذا التقسيم

---

(١) ، (٢) قرمين : مستقبل الثقافة ص ٢٤.

(٣) طه حسين : مستقبل الثقافة ص ٢٢.

الثقافى قصد به د. طه أن يخرج مصر والمنطقة المحيطة بها من حديث المستشرقين عن الشرق الروحى.. غير العقلانى .. الذى لايمتلك القدرة على أن يكون عقلانيا ، وكان رينان وغيره من المستشرقين قد قالوا الكثير فى هذا الصدد، بل إن طه حسين يقول صراحة أنه يريد للمصرى حين يقرأ مقولة الشاعر الإنجليزى رديارد كيلنج «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » أن يشعر أنه كمصرى ليس المقصود بذلك، بل المقصود بها أبناء الشرق الأقصى.

وهو لا ينكر ولا ينفى صلات مصر بما يسميه الشرق الأدنى «ما أظن أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية تجاوزت هذا الشرق القريب الذى نسميه فلسطين والشام والعراق ، أى هذا الشرق الذى يقع فى حوض البحر المتوسط (١) .. ويضيف قائلاً ، وليس من شك فى أن الصلة بين المصريين القدماء وبين هذه الاقطار من الشرق القريب كانت قوية مستمرة منظمة إلى حد بعيد ، وكانت بالغة الأثر فى الحياة العقلية والسياسية والاقتصادية لهذه البلاد كلها» (٢).

---

(١) طه حسين : المرجع السابق ص ١٩.
(٢) طه حسين : المرجع السابق ص ١٩.

وهو يتجه إلى تعميق علاقات مصر ببلاد الشرق القريب»
أفهم في وضوح ، بل في بداهة ، أن نشعر بالقرابة المؤكدة
بيننا وبين الشرق الأدنى ، لا لاتحاد اللغة والدين فحسب ، بل
للجوار الجغرافي ، وتقارب النشأة والتطور التاريخي».

وتقوم فكرة طه حسين على أن الظروف العقلية والثقافية
التي احاطت ببلاد حوض البحر المتوسط متشابهة ، ومن ثم
فلا فارق بينهما ، فارق بمعنى أن أحدهما شرقي والآخر
غربي ، وما قال به في الثلاثينيات بدا غريبا وشاذا وقتها ،
لكنه صار معروفا بين فريق من المفكرين في الغرب وفي
الشرق الآن .

هو يرى أن العقل اليوناني تأثر كثيرا بالثقافة والعقل
المصرى القديم، والمعروف أن الفيلسوف اليوناني طاليس
وكذلك فيثاغورث تأثرا كثيرا بالحضارة المصرية ، وقد زار
عدد من فلاسفة اليونان مصر وتعلموا منها وفيها ، كما
طوروا أفكارهم على ضوء خبرتهم بها .. وفيما بعد ومع
نهوض الحضارة الإسلامية والعربية تأثر العرب بالأفكار
اليونانية من خلال عملية ترجمة واسعة ، بدأت بسيطة في
القرن الثاني الهجري وبلغت ذروتها في القرن الرابع ،

وازدهرت الحضارة الإسلامية وأثرت في بلاد الغرب عبر الأندلس ، وحين اتجهت أوروبا إلى عصر الإحياء ثم عصر النهضة لم يكن هناك مفر أمامها من الاتجاه إلى أفكار الفلاسفة المسلمين وترجمتها إلى اللاتينية ، ترجموا ابن رشد إلى اللاتينية ولولاه لما تعرفوا على أرسطو وترجموا ابن خلدون وغيرهما ، وهكذا فإن العلاقة بين العقل المصرى والعقل اليونانى .. وعموما العقل في بلاد الشرق الأدنى ، جنوب المتوسط ، كانت قائمة ومتبادلة «إن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئاً يشرف به اليونان ، ويتمدحون به فيما يقولون من شعر ، وفيما يكتبون من نثر ، فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين ، وهى مذكورة أحسن الذكر فى شعر الممثلين اليونانيين ، ثم هى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودت وممن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة (١) ويضيف طه حسين بحق «كان اليونان فى عصورهم الراقية ، كما كانوا في عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٢١.

الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص (١).

ويبـــدى طه حـــسين أســـاه ، حين يصل البـــعض من المستـشرقين وغيرهم إلى أن العـقل اليونانى كـان البداية للحضارة الغربية المعاصرة ، بينما أصول ذلك العقل ، إن صحت التسمية ، تنتج عندنا «شرقا روحيا خالصا» لا يمكنه التـعقل .. «.. وبعد ، فـمـا هذا الشـرق الروحى ؟ ليس هى شرقنا القريب من غير شك . فشرقنا القريب ، كما رأيت هو مهد هذا العقل الذى يزدهى ويزدهر فى أوروبا ، وهو مصدر هذه الحضارة الأوروبية التى نريد أن نأخذ بأسبابها . وما أعرف أن للشرق القريب روحا تميزه عن أوروبا . ويتيح له التفوق عليها . ظهرت فى هذا الشرق القريب فنون وعلوم وآداب ، تأثر بها اليونان والرومان ، فأنتجوا حضارة أوربا ، وأعانهم على ذلك المسلمون ، أى أهل هذا الشرق القريب (٢). ويقول أيضاً ولكن في سياق آخر «كل شىء يدل على أنه ليس هناك عقل أوروبى يمتاز عن العقل الشرقى الذى يعيش فى مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب . وإنما هو عقل

---

(١) نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ ، ٥٣.

واحد ، تختلف عليه الظروف المتباينة المتضادة فتؤثر فيه آثاراً متباينة متضادة . ويمكن جوهره واحد ليس فيه تفاوت ولا اختلاف (١).

ويبدو طه حسين متأثراً بالكاتب الفرنسي «بول فاليرى» ويستشهد به أكثر من مرة ، ففى إحدى محاضراته حاول ڤاليرى» أن يحلل العقل الأوروبى فأرجعه إلى عناصر ثلاثة .. الثقافة اليونانية وما تنطوى عليه من فلسفة وفن وأدب ثم الحضارة الرومانية بما تضمه من سياسة وفقر وأخيراً الديانة المسيحية بما تحمله من دعوة للحب وللخير، وهو يحاول أن يحلل العقل الشرقى ، أى العقل المصرى والفلسطينى والشامى والعراقى ، فيجد أنه متأثراً بالعقل اليونانى والحضارة الرومانية والدين الإسلامى الكريم وما يدعو إليه من حب للخير وإعمال للعقل .

ما يعنينا هنا ونريد أن نصل إليه هو أن طه حسين كان على وعى تام بأهمية الصلة بين مصر وفلسطين وبلاد الشام كلها والعراق فلم تكن غائبة عن تفكيره ولا عن ذهنه.

***

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠.

الذى تغير عنده هو التسمية أو العنوان ، فهو تحدث عن بلاد الشرق الأدنى وما يربطنا بها من وحدة اللغة ووحدة الدين ، فضلا عن الجوار الجغرافى ، وإذا كان هو تحدث عن المتوسطية ، أو رابطة حوض البحر المتوسط ، وجعل بلاد الشرق العربى كلها متوسطية وهى فلسطين وبلاد الشام ، أى سوريا ولبنان وأضاف إليها العراق، فإذا اتجهنا إلى بلاد المغرب العربى ، فهى كلها بلاد متوسطية . أما السودان فكانت مع مصر (بلاد وادى النيل) وتبقى اليمن والمملكة العربية السعودية ودول الخليج ، وهى موطن ومنبع الإسلام.. هو فقط لم يحمل تسمية «القومية العربية» ولم يكن متحمسا لها ، وموقفه فى ذلك واضح ، حتى قبل صدور مستقبل الثقافة فى مصر.

فى عدد ابريل ١٩٣١ من «مجلة الهلال» نجد حواراً أجراه الأديب والكاتب نجيب صدفة مع طه حسين ، وكانا قد التقيا على السفينة التى تحركت من الإسكندرية إلى بيروت ، وتحدث صدفة طويلا مع طه حسين ، ونشر من ذلك الحديث ، ما يتعلق منه بالقومية العربية والوحدة العربية ، وأجابه طه بصراحة وبوضوح كامل «إن كنت تقصد تضامنا ثقافيا بين

البلدان العربية فإن مصر مستعدة للدخول فيه وأنه من أنصاره ودعاته ، وقد تباحثت مراراً مع بعض الأساتذة السوريين والعراقيين في شكل هذا التضامن ومعناه وأني أناشد بتوحيد برامج التعليم فى جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافى بينها».

ويضيف طه حسين «إن قصدت التعاون الاقتصادى فهو ممكن ومفيد».

ويستدرك طه حسين فى حديثه «أما إذا كنت ترمى إلى أن مصر مستعدة للمساهمة فى الوحدة العربية أو القومية العربية فأنت على خطأ ، فالمصرى مصرى قبل كل شيء . وهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف.

ويشرح طه حسين ما يراه من تصورات وأحاديث عن القومية والوحدة العربية «الوحدة العربية كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق امبراطورية جامة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسرى ونحن لا نرضى بهذا أو بذاك ..» ما يتحدث عنه ويقصده هو ما سوف يعرف فى الأدبيات السياسية بعد عدة عقود من هذا الحديث باسم «الوحدة الاندماجية» بين الدول العربية ، وقد جرت بعض نماذج لها

وفشلت فشلا ذريعا .. يكفى أن نذكر نموذج الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ ، التي بدأت بحماس كبير وانتهت بعد ثلاث سنوات بفاجعة كبرى.

يحاول طه حسين فى حديثه مع نجيب صدفة شرح فكرته فى رفض قيام وحدة عربية ، على غرار الولايات المتحدة الأمريكية «تعالوا معى نستعرض الروابط التى تصل مصر بالأفكار الأخرى ، فأولها اللغة وثانيها الدين وثالثها أصل بعض السكان ، ورابعها شكل بعض التقاليد الموروثة من عقبات تاريخية متشابهة ».. ويتوقف أمام كل عنصر من العناصر الأربعة «أما الدين فلا يصلح لأن يتخذ أساسا وإلا أصبحت الوحدة المزعومة وحدة إسلامية لا وحدة قومية وأصبحنا من جهة تدخل فيها شعوبا غير عربية . وكذلك أصل السكان.. فهو غير كاف لخلق الوحدة القومية العربية فإن الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربى ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء.. «ولو استطرد طه حسين لتحدث عن الاكراد فى سوريا والعراق.

أيا كان الأمر كان طه حسين مع الوحدة الثقافية والتعليمية ومع وحدة اللغة ، ويحبذ الوحدة الاقتصادية ،

أقصد التعاون الاقتصادى أما الوحدة السياسية (الاثوماجية) فقد رفضها.

***

قبل كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» وقبل حوار نجيب صدقة معه ، كان طه حسين قد حسم هذه المسألة ، فقد سئل طه حسين عن ثلاث قضايا .. موقفه من الحضارة المصرية القديمة أو دعاة الفرعونية .. ورأيه فى الحضارة العربية ماذا نأخذ منها وماذا نترك ..؟ وسئل كذلك عن الحضارة الأوروبية .. وكان الجدل واللغط اشتد منذ العشرينيات حول هذه الأمور أو الحضارات الثلاث ، واستمر ذلك الجدل طوال الثلاثينيات ، وحدد طه حسين رأيه «أرى الخصومة بين أنصار مصر القديمة وأنصار الحضارة العربية ضربا من اللغو ربما كان شده أكثر من خبره لأنه يثير فى النفوس ضروبا من البغض والضغينة والحقد . «ثم يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة أو الفرعونية بالتفصيل «من الحضارة المصرية القديمة أشياء قد ماتت ولا سبيل إلى إحيائها إلا عن طريق الدرس والبحث العلمى التاريخى كالدين واللغة والنظم السياسية والاجتماعية فما أظن أحدا

من أشد الناس إلحاحا فى حب هذه الحضارة ونصرها يتمنى لمصر أن تصطنع ديانة الفراعنة ولغتهم ونظمهم القديمة فى السياسة والاجتماع . ولكن من هذه الحضارة ما بقي ولابد من بقائه والخير كل الخير فى أن نعنى به ونجد فى أن يكون له فى حياتنا أقوى أثر ممكن وهو الفن .. ويؤكد على هذا المعنى ثانية «إن إحياء الحضارة المصرية برمتها لا سبيل إليه ولا خير فيه ، ولكن الانصراف عن هذه الحضارة برمتها إثم فى حق الفن وفى حق مصر الحديثة نفسها .

وبنفس المنطق ينظر طه حسين إلى الحضارة العربية ويدعو إلى التعامل معها «وكثيرا جداً من عناصر الحضارة العربية لا خير فى بقائه ولا سبيل إليه كالنظم السياسية وكثير من النظم الاجتماعية ، ولكن عنصرين أساسيين من عناصر هذه الحضارة لا سبيل مطلقا إلى التخلص منها ، ومن المحقق أن محاولة هذا التخلص إثم وعبث فى وقت واحد، فالدين العربى واللغة العربية مقومان أساسيان للحياة المصرية الحديثة سواء أراد الناس أم لم يريدوا ، وإذن فحظ الحضارة العربية من حياتنا المصرية كحظ الحضارة المصرية القديمة ندع بعضها ونستبقى بعضها ونحن لا نختار ذلك بل

نكره عليه».

ويتوقف عند الحضارة الغربية مستعرضا ما يقال عنها والمواقف منها «أما الحضارة الأوروبية فلست أرى رأى الذين ينكرونها أو يتهمونها بالشر والفساد والإغراق فى حب المادة، فليس شيء من هذا صحيحا ، وإن الحضارة الأوربية كغيرها من الحضارات لها نواحيها المختلفة وفيها الخير والشر وفيها ما ينفع وما يضر ومهما نفعل ومهما نحاول فسنأخذ من هذه الحضارة كل ما نحتاج إليه».

ويستعرض آراء من يرون أن الحضارة العربية تغنينا عن الحضارة الأوروبية نهائيا «أشد النكبات على الناس أن تحاول تطبيبهم بطب ابن سينا أو الرازى معرضا عن استير أو غيره من علماء أوروبا».

القول النهائى فى هذه المسائل هو «أن نحتفظ من الحضارة المصرية القديمة بما يلائمنا وهو الفن ومن الحضارة العربية بالدين واللغة ، وأن نأخذ من الحضارة الأوروبية بكل ما نحتاج إليه ، وليس فى هذا شر ما دمنا نحتفظ بشخصيتنا المصرية فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوروبية حياتنا على أننا أمة لا مقوماتها الخاصة».

وهو لا يجد غضاضة في أن نتعامل مع الحضارة الأوروبية وليس فيها ما يهدد كياننا أو وجودنا «عجز الفرس واليونان والرومان والعرب والترك عن أن يفنوا شخصية الأمة المصرية وما أحسب أن الأوروبيين في العصر الحديث سيفنون ما لم تفنه هذه الأمم في القرون القديمة والوسطى (١).

---

(١) النص بالكامل منشور في كتاب مقالات طه حسين ، المجلد الثاني ، صفحات ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، الناشر دار الكتب المصرية سنة ٢٠٠٢.

ملاحق الكتاب

ملحق (١)

انتصار للنبوغ والأدب
الدكتور طه حسين بك ومجلة الكاتب المصرى

بقلم : محمد مهدى الجواهرى(١)

كانت الصحف العراقية أكثر ترويا من شتى الصحف العربية فى الأقطار المجاورة وأمتن موقفاً فيما يختص بالتهمة الموجهة إلى الدكتور طه حسين وهو مفخرة الأمة العربية والعلم المفرد فى تاريخها الأدبى الحديث من أنه أصبح على حين غرة ومن تحت الليل كما يقول «صهيونياً» وتلك مفخرة غير قليلة الأثر للصحافة العرفية وللعراق فهى فى جملة دلالتها ومفاهيمها تدل قبل كل شىء على أن الوعى الوطنى والسياسى عندنا يتركز تركيزاً طيبا ويتلقى الخليط المشوش من الحقائق والمحيادت والتهم والدسائس الاستعمارية والنعرات الحزبية والطائفية فى جو موبوء بما يبيت لبدان

---

(١) نشرت جريدة «الرأى العام» اليومية التى تصدر فى بغداد هذا المقال، وكان الشاعر العراقي الكبير محمد مهدى الجواهرى هو من يصدرها وترأس تحريرهاوأعادت جريدة «البلاغ» المصرية نشره «ليطلع عليه القراء» فى عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥

الشرق العربى خاصة وللعالم عامة. إن الوعى الوطنى والسياسى عندنا - ولله الحمد- أصبح يتلقى هذا الخليط المشوش المدبر أكثره بروية هما من أحسن البوادر وأطيبها فى نهضة الشعوب إلا أن هذا الموقف الجميل من الصحافة عندنا، وهذه الشهرة الواسعة الطيبة التى يتمتع بها الدكتور طه حسين في الاوساط الأدبية والعلمية فى العراق كما فى سائر البلدان العربية الاخرى لم يمنعا المخرصين والغافلين والمأخوذين بتهريجات بعض الصحف فى البلدان العربية وفى مقدمتها الصحف المصرية الغارقة فى الحزبية العنيفة حتى أذنها أن يتأثروا بعض الشىء بما ألصق بالدكتور طه حسين من تهمة كان يجب أن تكون أقرب إلى الدعابة منها إلى الاتهام لو جاز فى (فن) الدعابات شىء من هذا القبيل.

فمنذ مدة واللغط يكثر فى الصحف المصرية الحزبية أولاً وفى بعض الصحف المطعون فيها باتصالاتها الاستعمارية فى بعض البلد العربية المجاورة ثانيا بأن الدكتور طه اصبح صهيونيا ويريدون بـ(طه) نفس الرجل الذى لم تجد فى مصر من حملة الأقلام من استعرض مثله قضية العرب وفلسطين منه بوجه خاص على ضوء التحليل العميق واستكشفوا

الحقائق وربط الحوادث والتاريخ الحديث بدسائس الاستعمار والمستعمرين والخلوص من كل ذلك الى الدعوة لبعث الامة العربية بعثاً جديداً خالصا ولابد من الاعتراف أن بعض الصحف التى لا بأس بسمعتها أيضاً تناقلت من جهة ثالثة هذا اللغط فى اتهام الدكتور طه متأثرة بهذه الطعون التى - ويا للأسف- كانت مبادرة من بلد الرجل نفسه الذى رفع اسمه عاليا قبل اسم البلاد العربية كلها فى العالم وأسبغ عليه نعمة من التقدير لا يقدر أن يسيغها إلا العباقرة وهم قليل فى كل الأجيال ومن قبل أنصار السياسة الرائجة المبتذلة التى لا تعنى بتحطيم أعز شىء فى سبيل الوصول إلى أرخص شىء وإلا من قبل أعداء الرجل -العاملين عمله- وغير اللاحقين به من حملة الاقلام فى الصحف الحزبية.

لقد كان على مصر وهى تريد أن تتزعم البلدان العربية فى نهضتها الحديثة وتعمل لذلك دائبة، أن تضرب لنا مثلاً بليغا فى مقدار حرصها على صيانة مثل الدكتور طه من لغط اللاغطين وهى إذ تضرب لنا هذا المثل فإنما تدلنا على أنها تضرب أسمي الأمثال وأكثره قربا إلى الفهوم والاذهان فقد لا يكون المثل شيئاً مذكورا في ان يكون بلد بحكم موقعه

الجغرافى محط رجال المتفاوضين ولا أن تدربه على أساليب الصحافة والتأليف وتوفر أدواتها جعله قديراً على إغراق الأسواق العربية بالصحف والمجلات والروايات والكتب التى يقل فيها النافع ويكثر فيها الضار ولا أن يكون فى شتى المظاهر والاعلانات التى تحيط تصرفاتها السياسية والاقتصادية وغيرهما ؟

ان كل ذلك وهذا مما يقبل التأويل والتحوير ومما يجوز أن يتنافى إن كثير وإن قليلا مع الامر الواقع والنظام السائد ولكن مما لا يجوز فيه الشك ولا يقبل التأويل أن الدكتور طه مصرى قبل كل شىء وأن فضله الحميم على العالم العربى انبثق من مصر. وأن خلود ذكره ونباهة صيته عقد ما نحمد الكثيرون ويتبعد صيتهم خلود لذكر مصر ونباهة صيت عندما يخمل الكثيرون ويتبلد صيتهم خلود لذكر مصر ونباهه صيت مصر فلتضرب لنا مصر حكومة وشعبا المثل فى مقدار اعتزازها به وحرصها عليه واكبارها .

إننا نعلم -قبل أن نعلم الشىء الكثير عما فى مصر- أن الدكتور طه حسين هو الرجل الذى أغنى مصر عن مستشار أجنبى لوزارة المعارف فيها إذ لم يكن من الاجانب المختصين

من يصح له أن يشغل ما أشغله منها وأن الدكتور طه حسين عندما مثل مصر في مهرجان أبي العلاء المعري كان الأدب العربي متمثلا والنبوغ العربي متجسما وكانت الجماهير المثقفة تزحف الى رؤية هذا المصري بمفرده ما لا تزحف لرؤية من يمثلون البلاد العربية كلها باجمعهم وفيهم أقطاب السياسية وفحول الشعراء وأعلام العلم والادب وأننا لنعلم قبل أن نعلم الشيء الكثير عن مصر أن الدكتور طه يحاضر في قاعة (يورت) وفي الادب العربي لا الصهيوني ستة آلاف مثقف لا تتسع لاكثر من ذلك - يتسابقون ببطاقاتهم على حضورها تسابق حاملي بطاقات السكر عندنا وان الدكتور طه كان أول من اسس التعاون بين الامم العربية على نظام الحكم عندما اتيعته بعض السلطة في وزارة المعارف المصرية وأنه أول من نادى بضم الشرق العربي كله في حظيرة واحدة.

وإننا نعلم - قبل أن نعلم الكثير عن مصر- أن الدكتور طه ومن حرم بلاده من خدمات لمئات من المعذبين وهي في أشد الحاجة إليهم ليوثقوا عرى التعارف بما يقدمونه من خدمات في البلدان العربية وأنه كان يستقبل البعثات الكثيرة

من الطلبة الشرقيين بالكرم والترحاب العربيين ليدخلهم المعاهد المصرية على اختلاف أنواعها من رياض الاطفال حتى الجامعات ولم يرد طلب أحد منهم للاقامة فى الاقسام الليلية التى جهزها بكل ما يضمن راحتهم في غربتهم وأن طه هو الذى أنشأ مكتب التعاون الثقافى بين مصر والعراق، اننا علمنا هذا كله قبل أن نعلم الشىء الكثير عما يجرى فى مصر فهل علمناه لنعلم أن الدكتور طه حسين انكشف عن «صهيونى» جديد !!

وهل علمه مالم نعلمه قبل الدكتور طه حسين عن «أبى العلاء» وعن «ابن خلدون» وعن «هامش السيرة» وعن «المتنبى» وعن مجلدات كبيرة فى تاريخ الامة العربية وآدابها وأمجادها ورجالها خالد فى بطون الصحف والمجلات والمخطوطات هل علمنا هذا كله وتلذذ به على حساب تفكير الدكتور وأتعابه وعصارة دماغه وقلبه. وأورثناه أولادنا وأهلنا لنقول لهم بعد ذلك وعن «ارتجال» وسرعة خاطر أن ذلك كله من نتاج عاطف على الصهيونية .

وبعد فهل تذهب سدى وبين عشية وضحاها كل هذه الجهود المسداة إلى الامم العربية بأجمعها لتحل محلها تهمة

هى وإياها على طرفى نقيض لقد كان الدكتور أمس موضع الحديث عن تفكيره من السعة والشمول بحيث لا يريد ان يقرء تاريخ الادب العربى والجاهلى منه خاصة بدون تمحيص ولا تحيقيق مهما اصدم هذا التحليل بمقدسات كثيرة واليوم يصبح نفس هذا التفكير للرجل موضع حديث بأنه من الضيق بحيث لا يتسع إلا للصهيونية العنصرية المحتضرة وهذه التناقصات في الاحكام المرتجلة عندنا تسيء في أكثر من ناحية واحدة فهى تسيء الى سمعنا كمتهمين وحاكمين وهى تسئ الى ما نضعه من تاريخ حديث لنا لا يكتب له البقاء وهى تسئ الى ما نلقيه من دورس قاسية على النوابغ عندنا أولا، وعلى الاجيال اللاحقة بنا ثانيا.

لقد كان حلما لدي الشباب العربى فى كل الاقطار ان ينزل الدكتور طه الى ميدان الصحافة الادبية فى هذه الفترة التي يحتاج القراء فيها الى قبس من الأدب الحي ولقد كان الاستبشار عاما بأن تنبثق مجلة «الكاتب المصرى» فتحتل مكانة مرموقة بين المجلات العربية البارزة وكفى باشراف الدكتور عليها ضمانا لهذه المكانة.

ولقد صدر العدد الأول لهذه المجلة فإذا به يحقق جانباً

---

(١) يقصد نجيب الهلالى باشا وزير المعارف السابق ورئيس وزراء مصر فيما بعد.

كبيراً من هذا الحلم وصفحة من هذا الاستبشار فكان من كتابه الهلالى باشا وزير المعارف السابق (١) وتوفيق الحكيم، ولفيف من كبار أساتذة الجامعات المصرية ومن مواضيعها كل ما فيه خدمة للعرب وآدابهم وعلومهم ولكن كان الى جانب ذلك كله - وعلى العادة- سلاح مرهف للطعن فيها. وفى الدكتور طه نفسه معه أريد به استغلال كون الدكتور مستشاراً مالياً لشركة فيها يهود ورأسمال للمجلة من هذه الشركة كأن اليهود طاروا من البلدان العربية وعواصمها خاصة وانمحت معهم شركاتهم وزالت عنهم جنسياتهم، ولم يبق لأى عربى فى السياسة ولا فى الاقتصاد ولا فى الصحافة ولا فى الأدب أى ارتباط بهم وكأن اليهودية فى البلدن العربية هى الصهيونية بعينها.

أما أن أحداً لم يشم -ولن يشم- رائحة ولو قليلة من روائح الصهيونية فى المجلة وأما أنها وهى فى أولى خطواتها تقوم بكل عطر طيب للبلاد العربية، فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وأما تاريخ صاحبها الحافل بالخيرات وأما تاريخ المحررين فيها وكلهم مشاهير فهذا كله مما كان لا يعنينا

تفهمه ولا يروق لنا استفهامه.

وبعد فلنتق الله الضمير فى أحكامنا على هذه الحفنة الصغيرة جداً من مفاخرنا ولنعرف أين نضع أقدامنا ونحن ندوس كرامات النابغين ولنكن معتزين على الاقل بأننا لا نتهم الرجال بالتهم المتناقصة التي تضرب بعضها بعضا.

وأنت أيها الرجل العظيم امض في سبيلك القويم ولا تأبه بالحشرجات الضعيفة التى ليست بآخذة منك بشىء ان المعترفين بفضلك لكثيرون وان المعجبين بك فى الشرق كله لأكثر وإن الاصوات التى تذكر جهادك وتتحدث عن جليل أثرك وعظيم عملك لضمينة بأغراق هذه الحشرجات أن هذه الهمسات ستخفت وان لواء عبقريتك الفذة لينتشر، وأن الشباب العربى ليشد أزرك، ويعنك على أداء رسالتك وانك (جلدة بين العين والانف منهم) والسلام عليكم

ملحق (٢)

نتحدى !

بقلم : إسماعيل مظهر(١)

كنت أول من كتب مبيناً عن الأغراض الخفية التى تنطوى عليها شركة «الكاتب المصرى» وهى شركة للطبع والنشر وبيع الورق المضغوط وغيره من أدوات الطباعة ، وراعنى أن يكون الدكتور طه حسين عميل هؤلاء الذين إن تجردوا من كل شىء فلا يتجردون من أنهم هرارى وسيكوريل ، ومن أسطورة أنهم من أبناء شعب الله المختار ، ومن خرافة أن فلسطين أرض الميعاد ، ومن عقيدة أن فلسطين وشرق الأردن وسوريا هى وطنهم الأول ، وأن العراق ومصر والسودان وبلاد العرب هى مجالهم الحيوى ، وأنهم أرقى الأمم وأحق الشعوب بملك الأرض ، وأنهم السلالة النقية ، يحيون بذلك الفكرة السلالية التى قامت عليها الفكرة الخاطئة فى ألمانيا فى عهد غليوم وتجلت بمظهرها الدموى فى عهد هتلر .

وأن لى لعقيدة لن تخرج من روعى أو تخرج معها نفسى ،

---

(١) مجلة «المقتطف» الشهرية. عدد فبراير ١٩٤٧

هى عقيدة أن كل صهيونى يهودى أولاً ، وأن كل يهودى صهيونى بعد يهوديته ، وأن الحرب التى يشنونها فى فلسطين حرب أبتداء ، وأن أنظارهم تتطلع إلى الشرق برمته ، وأن يهود العالم أجمعين ، وفى أى ركن من أركان الدنيا ، يتطلعون إلى اليوم الذى يسودون فيه الشرق ، ثم من بعد ذلك يسودون الدنيا ، لأن هذا الشرق هو ولاشك مفتاح العالم المتحضر .

وقد نشرنا مع هذه الكلمات كتاباً من الدكتور «طه حسين» نشرته جريدة الدفاع فى «يافا» فى شهر أكتوبر من سنة ١٩٤٥ ، وأحتفظنا به طوال هذه المدة أى حوالى سنة وشهرين لعل الدكتور وشيعته يحققون نبوءته التى تنبأ بها فيه إذ قال :

«ومن يدرى لعل خصوم هذه المجلة يبهتون فى يوم من الأيام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية وهجوماً عنيفاً على ظلمها ودفاعاً عن العرب فى وطنهم فلسطين» .

وإنى أتحدى طه حسين أن ينقل العبارة الآتية وينشرها فى مجلة «الكاتب المصرى» ممهورة بإمضائه الكريم إن كان

من الصادقين .

«أنا طه حسين ا' سرى العربى المسلم ، أعلن على صفحات مجلة «الكاتب المصرى» أن الصهيونية إفك وعدوان على العرب ، وأنها تحاول أن تخرج العرب من ديارهم أو تستعبدهم فيها ليكونوا لها خدماً وعبيداً وإنى أبرأ إلى الله من اليهود والصهيونية ، وأن عقيدتى العربية ، ودينى الإسلامى ، يأبيان أن يكون وطن عربى مجالاً لمفاسد هؤلاء الأفاقين الذين هبطوا فلسطين بعد أن لفظتهم أوطانهم ، وإنى أؤمن بما يؤمن به العرب أجمعين أن فلسطين إما أن تظل عربية ، وإما أن يدفن آخر عربى فى ثراها» .

هيا سيدى الدكتور ، إن كنت من الصادقين فانقل هذه العبارة فى «الكاتب المصرى» وامهرها «بإمضائك الكريم» ، نؤمن بأنك عربى مصرى مسلم ، وإلا فقد لزمتك الحجة بما قيدت به عنقك من وعد صريح بأن تشن فى «الكاتب المصرى» خصومة عنيفة على الصهيونية ، وأن تدافع عن العرب فى وطنهم فلسطين ، ولكنك سوف لاتفعل وغالب الظن أنك لن تفعل ، فإنك لست من العروبة بحيث تفعل .

ولا نتحداك وحدك بل نتحدى معك كل شيعتك من الذين أخرجت لهم كتباً بمال اليهود أو تعاقدت معهم على أن تخرج لهم كتباً لاتزال تحت الطبع أو كاتب أجرته ليسود صفحات من «الكاتب المصرى» ، نتحدى هؤلاء جميعاً إن كانوا عرباً مسلمين أو نصارى أن ينقلوا أو ينقل واحد منهم هذه العبارة وينشرها ممهورة بإمضائه الكريم . أما إذا فعلوا فقد آمنا بعربيتهم وإسلامهم أو نصرانيتهم وإلا فإن الحجة التى تلزمك تلزمهم أيضاً بالتبعية لك ، وأقل مافى ذلك أن يصح رأينا الذى قلناه وهو أن أهون مافى هذه الشركة من مفاسد ، أن تكم أفواه مئات الكتاب إذا ما ارتبطوا معها بمصالح مادية ، ومن أطعم فمه ، استحت عينه .

هيا سيدى الدكتور : تشجع قليلاً ، وتذكر قولة عمر بن الخطاب «ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم» .

إسماعيل مظهر

ملحق (٣)

حديث المساء

غريب   بقلم: د. طه حسين.

المقتطف ١ فبراير ١٩٤٧

وارحمة بالغريب في البلد النازح

ماذا بنفسه صنعا

فارق إخوانه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعا

وليست مصر بلداً نازحا بالقياس إلى فلسطين فى هذه الأيام التى يستطيع الناس أن يطووا الأرض فيها طياً ، أو ينهبوا المسافات فيها نهباً ، بالسيارات حيناً وفى القطارات حيناً آخر والتى يستطيع فيها الناس أن يقتحموا الجو إقتحاما ويلتهموه التهاما ، بالطيارات حين تدعوهم إلى ذلك مرافقهم وحاجاتهم ، أو حين يدفعهم إلى ذلك مايثيرهم من الآمال والآلام .

نعم وليست مصر بلدا نازحا بالقياس إلى فلسطين ولا بالقياس إلى أى بلد من بلاد هذا الشرق العربى الذى تجمع

●كوكب الشرق . عدد ٤ مارس ١٩٣٤

بين أجزائه صلات المودة والحب ، وعلاقات الثقافة واللغة والدين . فالرجل من أهله مقيم في وطنه مهما تبعد به لدار ، مضطرب بين مواطنيه مهما تنأ به الآماد ، مادام لم يخرج من هذا الشرق العربى .

ليت مصر بلداً نازحاً بالقياس إلى فلسطين فما ينبغى أن يكون الرجل من أهل فلسطين غريباً فى مصر وما ينبغى أن يكون الرجل من أهل مصر غريباً فى فلسطين . ولكن الظروف القاسية ، والخطوب العاتية ، والأيام السود تأبى إلا أن يكون المصرى غريباً فى مصر فكيف بالرجل من أهل فلسطين ، إذا أقام على شواطئ النيل .

وإذا كان المصرى من أهل القاهرة لايستطيع أن يزور بنها أو قليوب أو طوخ إذا كرهت له الوزارة ، أو كرهت منه الوزارة أن يزور هذه المدن مع أن أرض مصر مباحة للمصريين جميعا بحكم الدستور والنظام والقانون وطبيعة الأشياء ، فكيف ننكر أن يعجز الفلسطينى عن أن يزور مصر أو أن يعجز الفلسطينى عن أن يخرج من مصر عائداً إلى وطنه مهما تكن الظروف التى تدعوه إلى أن يعود .

نعم يجب أن يشعر كل شرقى بأنه غريب فى الشرق ، سواء أكان هذا الشرق وطنه ، الذى ولد فيه أم لم يكن ، ذلك شىء لا منصرف عنه مادامت أمور الشرق ليست إلى الشرقيين ، ومادام الذين يحكمون فى الشرق ليسوا هم الشرقيين ، وإنما هم قوم آخرون أقبلوا من وراء البحر تسبقهم القوة المدمرة ، وتتبعهم القوة المدمرة ، ويستطيعون أن يفرضوا إرادتهم وأهواءهم على عباد الله فرضا يجب أن يشعر الشرقى بأنه غريب فى الشرق مادام الغربى والغربى وحده هو الذى يصرف أمور الشرق ويقضى فيها بما يحب ويريد . ومن يدرى لعل شعور الشرقيين بأنهم غرباء فى بلادهم ، أجانب فى أرضهم ، سجناء فى أوطانهم . لعل هذا الشعور إذا قوى واتصل وتغلغل فى أعماق النفوس أن يثير فى نفوس الشرقيين ، ماينبغى أن يثورفيها من الحرص الصحيح المنتج على أن يكونوا أبناء بلادهم حقاً ، وأهل أوطانهم حقاً ، وسكان أرضهم حقاً لاينازعون فى ذلك ، ولا يدافعون عنه ، ولا يتحكم فيهم المتحكمون .

كل شىء فى هذه الأيام يلغى ما بين البلاد والأوطان من هذه الحدود التى أقامتها الطبيعة جبلا حيناً ، ونهراً حيناً

وبحـراً مـرة وصــحـراء مـرة أخـرى وكل شىء فى هـذه الأيام يخفق هذه الفروق التى أنشأتها الطبيعة بين الناس .، ولكن هناك شيئاً يقيم مكان الحدود الطبيعية حدوداً أخرى ، ويقيم مكان الفروق الطبيعـة فروقـا أخـرى ، ويزيـد التقاطع والتدابر بين الناس ، وهـو ظلم الاسـتـعـمـار ، ظلـم الاسـتـعـمـار يجـعل الشرق العـربى سـجنا ضـخـمـا هـائلا يسكنه عـشـرات الملايين من السجـاء ، وهو يقسم هذا السجن أقساما ويلزم أن يقيموا فى هذه الأقسام لايخرجون منها ، ولا يدخلون إليها إلا بإذنه ورضـاه وهو لايعتمد فى إذنـه ورضـاه علـى عـدل ولا قسط ، ولا رحـمة ، ولا عـاطفـة ، وإنما يعتـمـد علـى المنفـعـة وحـدهـا وعلى هذه المنفعة الآثمة الظالمة التى تجعل الناس عبيداً للناس فى وقت يجب أن يكون الناس فيه كلـهم أحرارا ، وأن يـكون النـاس فيه كلهـم سواء ، أمام الحـق والعدل والأنصاف .

خطـرت لى كل هـذه الخـواطـر المظلمـة حـين أقـبـل مـقـبـل فـأنبأنى بأن صـديقـا لنا مـن أهـل فلسطـين أقـام فـى مـصـر منذ أعوام ، وله فى سيـاسـة بلده مـذهب يكرهه المسـتـعـمرون فهو يقيم فى مـصـر كأنه حر ، وأكبـر الظـن أنه سـجين ، وهـو راض بـهذه الحرية الضـيقة ، وهو مـغتبط بهذا السـجن الذى

اتخذ له من وادى النيل لأن من السجناء المصريين أصدقاء تنوب ، والله لم يقطع الصلات كلها بينه وبين وطنه فى فلسطين فهناك أهله الأقربون وهناك أخوانه ، وهناك أترابه ولداته ، وهو يتصل بهم، وهم يتصلون به ، يلقاهم إن هبطوا إلى مصر ، وتسعى بينهم الكتب إن أقاموا فى فلسطين . ثم جاءته الأنباء بأن أمه مريضة ، وبأن مرضها شديد ، فهم أن يذهب للقائها، والعناية بها وقضاء ما فرض الله وما فرضت الطبيعة وما فرضت الأخلاق من حقها عليه ، ولكنه وجد باب السجن مغلقا ، فلما استفتح الباب لم يفتح له ، ولما ألح فى الاستفتاح لم يحفل به ، ولما غلا فى الإلحاح لم يلتفت إليه والمرض هناك فى فلسطين يسلك طريقه لا متوانيا ، ولا متباطئاً ، لا مفكراً فى أن هناك ابناً فى مصر يريد أن يرى أمه ويجد فى الخروج من مصر مشقة وعناء فمن الخير أن يمهل ومن الخير أن ينتظر لعل قلب السجان أن يرق لعل هذا السجين أن يلقى أمه قبل أن يدركها الموت ، والسجين يستفتح الباب ويرفع إلى السجان ما يأتيه من آراء الأطباء وشهادتهم بأن المرض يسلك طريقه مسرعا لايصطنع رفقاً ولا أناة . ولكن قلب السجان مغلق كباب السجن لا تنقذ إلى

قلب السجان رحمة ولا بر كما لايستطيع السجين أن ينفذ إلى أرض وطنه ، ليرى أمه قبل أن تموت .

ثم يحمل البرق إلى هذا السجين فجيعته فى أمه . فلا تذكر حزنه ولا تذكر جزعه ولا تذكر يأسه ، فكل هذه أشياء لم يبق لها الآن خطر ولا قدر ، ولكن أذكر أنه أسرع بهذا النبأ إلى السجان ، يسأله أن يفتح له الباب ليسرع إلى وطنه فيؤدى إلى أمه الواجب بعد أن أدركها الموت مادام قد عجز عن أن يؤدى إليها الواجب قبل أن يدركها الموت . ولكن قلب السجان مغلق دائما كباب السجن . فلن يخرج هذا الصديق الحزين البائس من مصر ، ولن يرى أمه ميتة كما أنه لم يرها مريضة ، لن يسعى فى جنازتها لن يصلى عليها ، لن يقوم على قبرها ، وستسعى هذه المرأة الصالحة إلى القبر لايشيعها ابنها ، وستهبط هذه المرأة الصالحة إلى القبر لايودعها ابنها وستلقى دون الأحياء ودون هذه المرأة الصالحة هذه الجنادل الصم التى تغلق أبواب القبور ، وسيظل ابنها سجيناً وستحول بينها وبينه هذه الأبواب الثلاثة المغلقة ، هذا الباب الذى لايفتح للرحمة إلى قلب السجان ، وهذا الباب الذى لايفتح للسجين إلى فلسطين ، وذلك الباب الذى

إذا أغلق من دون الموتى فإنه لايفتح إلا يوم يؤذن للموتى بالبعث والنشور ، وسيقول المستعمرون بعد هذا أنهم رسل الرحمة وملائكة السلام وأنهم قد أقبلوا إلى الشرق يحضرونه ويهذبونه ويثقفونه ويرمون به إلى المثل الإنسانية العليا .

ما أجدر الإنجليز أن يتفكروا فى هذه القسوة التى يعجز الناس عن وصفها لأنم يعجزون عن إدراكها ولكنهم لايعجزون عن اقترافها حين يدفعهم إلى ذلك الظلم والجور ، والغطرسة والكبرياء .

ما أجدر الشرقيين أن يتفكروا فى هذا وأن يرحموا أخاهم هذا الغريب وأن يرحموا أنفسهم فكلهم غريب كهذا الرجل وأن يفكروا لأنفسهم فى شىء من العزة والكرامة يطلقهم من هذه السجون الواسعة الهائلة التى يخيم عليها الظلام.

ما أجدر هذا الصديق الغريب الأستاذ محمد على الطاهر أن يتعزى وأن يتأسى ، وأن يعلم أنه لايشقى وحده بهذه الآلام الثقال ، وإنما يشقى بها معه كل هؤلاء الشرقيين الذين يضطرهم الاستعمار إلى حياة الذل والبؤس والهون

طه حسين

ملحق (٤)

الصلح مع إسرائيل (١)

بقلم الدكتور طه حسين

لم يكن من جناة تلك الحرب التى سيخذى لها جبين الإنسانية المتحضرة فى يوم من الأيام القريبة ولكنه اصطلى حرها وبلى مرها ، كما بلته مئات كثيرة من ألوف الناس الذين لاذنب لهم إلا أنهم عرب لم تتح لهم وسائل الذود عن حياضهم والأحتفاظ بحقهم فى الحياة الكريمة التى تأذن الله بأنه قد أسبغ نعمتها على الناس جميعا ... وقصر جيرانهم من العرب أو أخطأهم التوفيق حين خفوا لمجدتهم فلم يبلغوا مما أرادوا شيئاً ولم يحفظوا على إخوانهم المضيعين من حقم فى الحياة الكريمة قليلا ولا كثيرا .

لم يجن هذه الحرب ولكنه ذاق آلامها مروعة واحتمل أثقالها مفظعة.. ثم خلا إلى نفسه بعد أن أتيحت له العافية المرة والسلامة التى لايسعد بها أصحابها فجعل يفكر فيما رأى ويتدبر ما أحس من لوعة ما احتمل من شقوة وما بقى فى نفسه وفى نفوس مئات الألوف الكثيرة من حسرات جعل

---

(١) نشرت بجريدة الجمهورية ، عدد ٤ يونية ١٩٥٦

يفكر فى هذا كله لماذا كان ! وكيف كان ! وإلى أى عاقبة سينتهى به وبقومه وبالعرب أجمعين كل هذا الذى كان . وأطال التفكير فى ذلك والتدبر له وجعلت الليالى تمر والأيام تكر والحسرات متصلة في نفسه وفى نفوس مئات الألوف الكثيرة من أبناء وطنه تضنيها وتعنيها ولا يزيدها مر الليالى وكر الأيام إلا لذعا وإمضادا وهو وأمثاله من أبناء وطنه ثابتون لها صابرون عليها ولعلهم أن يستزيدوها لذعا وإمضادا لأنهم حراص على أن يذكروا .. على أن يذكروا كل شىء وأن يذكروه دائما وأن يشعروه قلوب أبناءهم وبناتهم وأن يملأوا به الأرض إن استطاعوا إلى أن يملؤها به سبيلا وأن يبلغوه ضمائر الذين بقى لهم حظ من الشعور بالعدل والاستخذاء من الظلم الذى يقع فى النهار المبصر على الأبرياء الذين لا ذنب لهم إلا أنهم لايملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم . ثم لم يكتف بالتفكير والتدبر ولا بالتضور ألماً لهذه الجسرات التى تقض مضجعه ومضاجع أمثاله من أبناء وطنه إذا أظلم اليل وتفرق نفسه ونفوس أمثاله إذا أضاء النهار .

لم يكتف بالتفكير والتدبر ولكنه أراد أو أكره على أن يريد

الإعراب من بعض ما يجب لعمل غيره من الذين يشاركونه
فى الإنسانية ويشاركون فى الشعور بحق الناس في العدل
وفى النفور من هذا الظلم الصارخ البشع الذى يصب على
الناس بغير ذنب إلا أنهم ضعفاء لعل غيره من هؤلاء الناس
يجدون بعض مايجد ويشقون ساعة من ليل أو ساعة من نهار
بهذا الذى يشقى به ويشقى به أمثاله من أبناء وطنه ساعات
الليل والنهار كلها .

أراد هذا كله فكتب ولكنه لم يكتب شكاة إلى أحد ولا رجاة
لأحد ولم يصور قلمه هذه الزفرات التى تتأجج فى قلبه وفى
قلوب مئات الألوف الكثيرة من أمثاله ولم يصور قلمه هذه
الدموع الغزار التى تأبى العيون أن تفيض بها تجملا وترفعا
فتنصب فى القلوب كما يقول الشاعر العظيم جوته ، ولكنها
لاتنصب فى القلوب ماء وإنما تنصب فيها نارا ، فتزيد ما
يتأجج فيها من الزفرات قوة وإضراما .

لم يصور كتابه زفرات ولا دموعا ولا حسرات أيضا لأنه لم
يكتب بقلبه وحده ولا بضميره وحده، وإنما أشرك عقله فيما
كتب وجعل لعقله السيطرة كاملة شامل على قلبه وضميره ،
وآثر أن يتحدث إلى عقول الناس فأبلغ وأدرك أكثر مما أراد ،

تحدث إلى عقولهم فلم تقصر هذه العقول فى أداء ما وعت إلى الضمائر والقلوب .

وإذا هو يقنع العقول بأن الصلح مع الظالمين إجرام مادام ظلمهم قائما ويشعر القلوب بأن من الخزى أن ترضى وقلوب أخرى لإخوان لها تتحرق حزنا وتتشقق لوعة وألما ، وأقر فى الضمائر أن الرضى بقصة فسلطين وظلم إسرائيل وأعوانها إنما هو مشاركة فى الإثم ورضى بما لا يرضى به إلا الذين برئوا من الإنسانية واستحقوا خزى الدنيا والآخرة جميعا .

هذا هو الأثر أو بعض الأثر الذى تركته فى نفسى قراءة كتاب الأستاذ عميد الإمام عن الصلح مع إسرائيل . قرأته مستأنيا فكنت أشعر بالضيق أشد الضيق أثناء قراءته وكنت أستحب ما أجد من الضيق ، وأطلب إلى صاحبى أن يزداد إناة فى القراءة لأزداد استمتاعا بهذا الضيق إن صح أن الناس يستمتعون بما تجد نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم من اللوعة والأسى . ثم فرغت من هذه القراءة ولكنى على اشتغالى بكتب أخرى كثيرة مختلفة وعلى اشتغالى بما يضطرب فيه الناس من حياتهم وأمورها المعقدة لم أنس هذا

الكتاب ولم أصرف عنه وإنما ذكرته منذ قرأته وعدت إليه غير مرة أقرأ منه هذا الفصل أو ذاك وربما عدت إليه فجعلت أقرأ فصوله كلها لأستحضر سائرها .

كنت أجد راحة ممضة إلى هذا الكلام المر وكنت ومازلت أتمنى أن يقرأه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وأن يقرأه الشباب خاصة والشباب الذين لم تتقدم بهم السن بنوع أخص لينشأوا مع هذه الفكرة ، فكرة الشعور بمرار الظلم والغضب للمظلومين حتى يتم لهم الإنصاف كاملا موفورا .

لم يعلمنى هذا الكتاب شيئا جديدا فقد كنت أعرف من قصة فلسطين مايعرفه أمثالى من الناس . ولكنى على ذلك أقرأ هذا الكتاب وأقرأ وأقرأ فلا أمل مرارته وإنما أستحبها وهذه مزية الكتاب الذى يصور العقل والقلب والضمير لأن صاحبه قد كان صادقا منذ أخذ فى كتابته إلى أن فرغ منها .

ولا أعرف شيئا أبلغ تأثيرا فى النفوس وأنفذ إلى أعماق الضمائر من صدق اللهجة حين يرتاح صدق اللهجة لكاتب من الكتاب وأشهد لقد أتيح للأستاذ عميد الأمام أن يكون صادق

اللهجة في كل ما قال .

وأبرع مافي هذا الكتاب أن صاحبه استطاع أن يقهر عواطفه وأن يروض آلامه الممضة وآماله الحزينة المضطربة وأن يكون موضوعيا كما يقال في كل كلمة خطها قلمه في هذا الكتاب . فهو لايتزيد ولا يتكثر ولا يرسل لقلمه العنان وإنما يضبطه أشد الضبط ويجريه في أعظم التحفظ والاحتياط فيستقصي حين يحب الاستقصاء ويحصي حين يحسن الاحصاء ويحلل ويعلل كلما احتاج البحث إلى التحليل والتعليل ويتتبع الأمور من مصادرها الأولى إلى مواردها الأخيرة ويرد أعمال اليهود والصهيونيين منهم خاصة وأقوالهم وخواطرهم وهواجسهم إلى أصولها من العهد القديم والعهد الجديد ويصور براعتهم وسعة حيلتهم في السعي والدأب وفي الكيد والمكر وفي شراء العقول والضمائر بالمال حين يحتاجون إلى شرائها بالمال وفي استغلال سلطان المال على الحكومات إلى أقصى حد وفي انتهاز الفرص والانتفاع بما يصيبهم من المظالم وما يصب عليهم من الآلام وفي الاستزادة من المظالم والآلات لاستثارة الشفقة والرحمة حينا ولترويع الضمائر وتفزيعها حينا

آخر .

يصور هذا كله في دقة أى دقة وفي هدوء أى هدوء . كأن الأمر لايمسه ولا يمس قومه من قريب أو بعيد وكأنه يكتب في موضوع لايعنيه إلا أن يؤديه إليك أداء صادقا ليتيح لك أن تحكم عليه حكما صادقا ثم ترتب على حكمك ماينبغى أن ترتب عليه من النتائج حين تعمل وحين تقول .

ولم لا أعترف بالحق فأقول أني لم أكن أعرف صاحب هذا الكتاب وكنت أظنه مواطنا مصريا ولد ونشأ فى مصر وكنت أعجب بما أتيح له فى هذا الكتاب من التوفيق بين البحث الدقيق الموضوعي والشعور الحاد العاطفى وما نشأ عن ذلك من صدق اللهجة وحسن المدخل إلى العقول والقلوب جميعا .

فلما عرفت بآخرة أن صاحب الكتاب فلسطينى شهد المأساة وأصطلى نارها ازداد إعجابى بهذا الذى عرف كيف يكتم ألمه ويكظم غيظه ويملك نفسه ويؤدى إلينا هذا الكتاب فى هذه الأناة وفى هذا الهدوء وفى هذا الصدق العجيب .

ولست أدرى أأهنىء الأستاذ عميد الإمام بهذا الكتاب الرائع البارع أم أستأنى بالتهنئة لعل الله أن يتيح لنا يوما من الأيام تهنئة ونهنىء إخوانه فيه بما هو أبلغ وأشد روعة من هذا الكتاب

بالنصر الذى يرد على الفلسطينيين حقهم ويرد على العرب كرامتهم ويعصم الإنسانية من هذا الخزى البغيض ولكن على كل حال أهدى إليه أصدق الشكر وأجمله لأنه أتاح لى هذه المتعة المرة بقراءة كتابه الممتع المر .

طه حسين

الجمهورية ٤ يونيو ١٩٥٦

الفهرس

صدر للمؤلف

١ - أيام سليم الأول فى مصر	الطبعة الأولى : دار النهر سنة ١٩٩٥ الطبعة الثانية: سلسلة «حكاية مصر»، الثقافة الجماهيرية. سنة ٢٠١٠.
٢ - الرائدة المجهولة: زينب فواز	الطبعة الأولى: دار النهر سنة ١٩٩٦
٣ - المصريون وحملة بونابرت	دار أخبار اليوم: القطاع الثقافى سنة ١٩٩٨
٤ - سيد قطب وثورة يوليو	الطبعة الأولى: دار ميريت سنة ١٩٩٨ الطبعة الثانية: مدبولى للنشر ٢٠١٠
٥ - وليمة للإرهاب الدينى	الطبعة الأولى: كتاب الحرية سنة ٢٠٠٠ الطبعة الثانية: دار ورد. دمشق سنة٢٠٠٢
٦ -على يوسف وصفية السادات رسائل الحب والزواج	ميريت للنشر سنة ٢٠٠٣
٧ - حسن العواقب أو غادة الزاهرة: زينب فوار ، تقديم ودراسة	القراءة للجميع سنة ٢٠٠٤
٨ - مناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى ، تقديم	المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٠
٩ - المفكر والعرب والصهيونية وفلسطين	رؤية للنشر ٢٠٠٧
١٠ - جرجى زيدان: الصهيونية أعمالها وتاريخها - تقديم ودراسة	كتاب الهلال ٢٠٠٩
١١ - أديب اسحق : الباريسية الحسناء - تقديم ودراسة	المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩

كتاب الهلال يقدم

أخلاقيات الحرب
فى السيرة النبوية

للدكتور

جعفر عبدالسلام

يصدر: ٥ أكتوبر ٢٠١٠م

رئيس التحرير
عادل عبدالصمد

رئيس مجلس الإدارة
عبدالقادر شهيب

رقم الإيداع :
٢٠١٠/١٧٢٨٩
I.S.B.N
977- 07- 1438-0

أحدث إصدارات كتاب الهلال (عامى ٢٠٠٩، ٢٠١٠)

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
الصهيونية تاريخها وأعمالها	حلمى النمنم	أكتوبر	٢٠٠٩
قد تكون الديانة تجسيدا للعقل	رجائى عطية	نوفمبر	٢٠٠٩
الحوار فى القرآن الكريم	د. محمد أبو ليلة	ديسمبر	٢٠٠٩
شخصيات ومواقف	د. وليد محمود عبدالناصر	يناير	٢٠١٠
كلام دبلوماسى	معصوم مرزوق	فبراير	٢٠١٠
هوس الوثيقة	د. مصطفى عبدالغنى	مارس	٢٠١٠
من أجل ثقافة علمية	د. نبيل حنفى محمود	أبريل	٢٠١٠
شمال نجد	د. صبرى محمد حسن	مايو	٢٠١٠
الأصول الإسلامية للعلمانية	د. وائل غالى	يونيه	٢٠١٠
فلاديمير نابوكوف	د. رمسيس عوض	يوليو	٢٠١٠
الإسلام منهج وتطبيق	د. محمد محمد أبوليلة	أغسطس	٢٠١٠

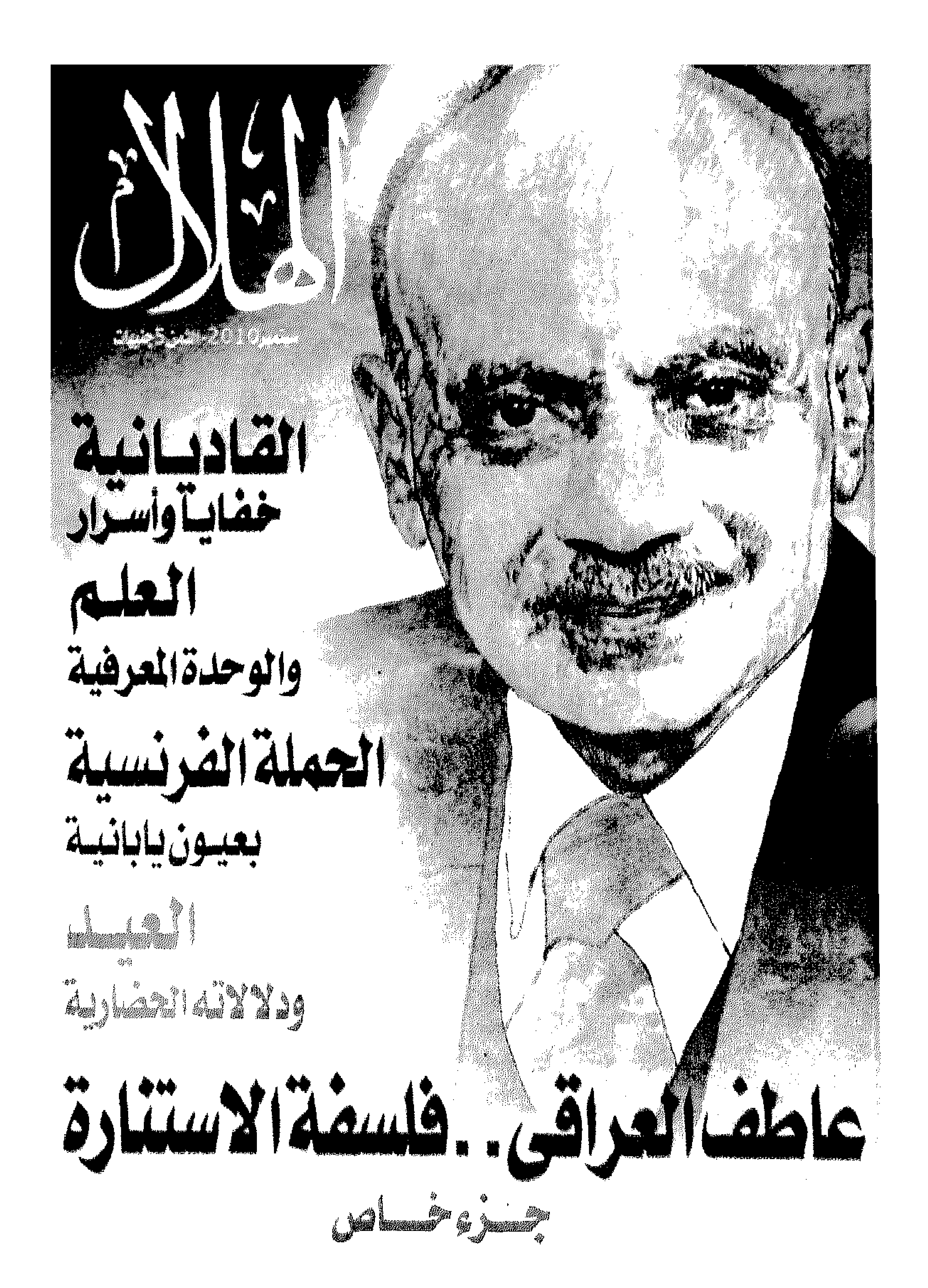
هذا الكتاب

● رأى طه حسين بعمق خريطة مصر، وأدرك أن فلسطين هى بوابة مصر نحو الشرق العربى، لذا تابع مبكرا ما يجرى على أرض فلسطين من ازدياد معدلات الهجرة اليهودية إليها وبروز المشروع الصهيونى، لذا راح ينبه فى مقالاته إلى خطورة ما يجرى فى فلسطين، خطورته على فلسطين وعلى مصر وعلى العرب والمسلمين جميعا، بلى وعلى الإنسانية كلها.

وحين تأسست جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٤ اعتبر أن مقياس نجاح هذه الجامعة فى مقدرتها على استعادة فلسطين والمحافظة على عروبتها وعلى حقوق شعبها.

شغلت الصهيونية وإسرائيل مكانا فى تفكير ووجدان طه حسين، وكان قادرا على أن يميز بين اليهودية كديانة واليهود العرب كمواطنين عرب وما تقوم به الصهيونية على أرض فلسطين من استيلاء على أراضيها وانتهاك لحقوق شعبها، ولم يسامح أبدا الأمم المتحدة لأنها اتخذت قرارات ومواقف مجحفة لصالح إسرائيل ضد الفلسطينيين والعرب عموما.

هذا الكتاب يفتش فى أوراق طه حسين وكتاباته وأفكاره حول فلسطين والصهيونية وإسرائيل، وهى كتابات مجهولة للكثيرين مما دفع بعض خصومه إلى اتهامه بتجاهل المسألة الفلسطينية والانحياز للصهيونية خاصة وأنه أسس مجلة «الكاتب المصرى» التى كانت مملوكة لأسرة يهودية مصرية.


الهلال
القاديانية
خفايا وأسرار
العلم
والوحدة المعرفية
الحملة الفرنسية
بعيون يابانية
العيد
ودلالاته الحضارية
عاطف العراقى.. فلسفة الاستنارة
جزء خاص

روايات مصرية للجيب

شلال متدفِّق من الروايات



Bibliotheca Alexandrina
0946868

أكثر الروايات بال
إثارة ، وأحفلها بال

تذوّق متعة
أحلى القصص ، و

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 2586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850